سلسلة نور المحبين

الإنسان المثالي

الشيخ محمود ربيع

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

الإنسان المثالي

- محمود ربيع حسن محمود -

رقم الإيداع: 21768 / 2023

الترقيم الدولي: 978-977-6793-91-0

تدقيق لغوي: محمد مصطفى

إخراج داخلي: لخضر بن الزهرة

تصميم الغلاف: أمنية محمد

دار الهالة للنشر والتوزيع

- جمهورية مصر العربية -

رئيس مجلس الإدارة / المدير العام: هالة البشبيشي

@Alhalapublishing

alhalapublishing@gmail.com

(+20) 1110161117

جميعُ حقوق الطَّبع والنَّشر محفوظةٌ للدار،
ولا يحق لأي شخصٍ أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه،
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات،
ولا يجوز تداوله إلكترونيًا: نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا؛ دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبِّر عن رأي كاتبها، ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

محمود ربيع حسن محمود

الإنسان المثالي

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنني لا ينقضي عجبي من حيرة القدماء والمعاصرين في فهم شخصية سيدنا النبي محمد ﷺ وسبب مثاليتها، ومصدر عظمتها، فمنهم من رام اللحوق بها ومجاراتها؛ ليأخذ حظه من مدح الناس وحمدهم -كأبي جهل- فلم يجد سبيلًا إلا إلصاق الاتهامات بهذه الشخصية الفريدة، ومنهم من يأس من ذلك وزعم أنّها شخصية خيالية لا وجود لها على أرض الواقع، إذ من المستحيل أن توجد شخصية بهذه الصفات المثالية، ومنهم من طأطأ رأسه تقديرًا واحترامًا لهذه الشخصية الإنسانية المثالية التي لم يدركها سابق ولا لاحق.

ولا يزال تحليل هذه الشخصية وهذه الإنسانية يشغل مساحاتٍ واسعة من تفكيرهم؛ ليعرفوا مصدر هذه المثالية، ومنشأ هذه الصفات البشرية الفريدة من نوعها، فمنهم من أرجع السبب إلى السحر؛ لأنّ الساحر ليس مثاليًّا على الحقيقة وإنما يخدع من حوله، ومنهم من أرجعه إلى الكهانة؛ لأنّ الكاهن يتنبأ بالمستقبل فيستطيع أن يعد للمواقف عدتها، ومنهم من أرجعه إلى الشعر وسعة الخيال؛

لأنّ الشعر يرقق الطبع ويسبح بصاحبه في بحور المثالية الخيالية؛ ومنهم من أصاب كبد الحقيقة وعلم أنّ هذه الطباع ليست طباعًا أرضية، ولا يمكن أن يتصف بهذه الصفات شخص يعيش كل حياته مع البشر، يؤثر فيهم ويتأثر بهم، بل لا بُدّ وأنّ له اتصالًا بعوالم أخرى كانت سببًا في هذه الطباع وهذه الأخلاق، التي لم ير الناس في دنياهم ولم يسمعوا من أجدادهم عن أخلاق مثلها.

وهذا ما توصَّل إليه العلامة الألماني (كارل هينرش 1876-1933م) بعد طول بحث، إذ يقول في كتابه (الشرقيون): «لقد أخطأ من قال: إنّ نبي العرب دجال أو ساحر! لأنّه لم يفهم مبدأه السامي، إنّ محمدًا جدير بالتقدير، ومبدأه حريّ بالاتباع، وليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وأنّ محمدًا خير رجل جاء إلى العالم بدين الهدى والكمال».

وإنني أحببتُ أن أقدمَ نموذجًا من نماذج شخصية سيدنا النبي محمد ﷺ وإنسانيته من حيث هو إنسان لا من حيث هو نبي ورسول.

وقبل بداية رحلتي المباركة مع هذه الشخصية النورانية العظيمة التي لا يمكن معرفتها على حقيقتها، فإنني أؤكد على ما قاله البروفيسور الهندي (راماكريشنا راو 1836-1886م) في كتابه (محمد النبي): «لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها، ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نَبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة، فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد

رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة تؤهله لأن يكون بطلًا».

وقد بدأت ببعض جوانب شخصية النبي ﷺ وأخلاقه التي كانت سجية فيه منذ ولادة حضرته.

وثنيت بعلاقاته بمن حوله من الناس، وكيف كانت معاملته معهم ونظرته إليهم؟

وثَلَّثْتُ بتعامل حضرته مع المستجدات من تحديات ومشاكل.

وختمتُ ببعض وصاياه لصلاح الفرد والمجتمع.

واللهَ أسأل، وبنبيه أتوسل، أن ينفعني به، وأن ينفع به كل من قرأه أو قرأ منه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ولوالدَيّ ولأهلي جميعًا ذخرًا عنده يوم القيامة، وحجابًا لنا من النار، إنّه خير مأمول، وأكرم مسئول، وبالإجابة جدير، وهو كل على شيء قدير.

والآن فلنبدأ الرحلة... فاستعن بالله على الوصول، وانوِ بقراءته حُبَّ الرسول.

المَدْخَل

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[الكهف:110]

لقد أكّد القرآن الكريم على بشرية الرسول ﷺ في غير موضعٍ منه، بل وأكّد ذلك سيدنا النبي ﷺ نفسه، فقال كما ورد في الحديث: «إنَّما أنا بشَرٌ مثلُكُم أنسى كما تنسَوْنَ فإذا نسيتُ فذكِّروني»[1].

ولكن كيف يكون فهمنا نحن لبشرية النبي ﷺ؟

إنّ الفهم لهذه البشرية حد فاصل بين الكفر والإيمان، فقد اهتدى قوم بفهمها فهمًا صحيحًا، وضلّ بالفهم السقيمِ آخرون.

ولك أن تُفرِّق بين فهم أبي جهل، وعتبة بن أبي ربيعة، وباقي كفار قريش لهذه البشرية، وبين فهم سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق وسائر الصحابة لهذه البشرية.

فالكفّار وقفوا عند ظاهرها، وأخطؤوا في فهمه أيضًا ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان:7]، وهم لا يقصدون الأكل والشراب في حد ذاته، وإنما يريدون ما وراء ذلك، فكما أنّ له نفسًا تشتهي الأكل والشراب فإنّ هذه النفس تشتهي الظهور، والجاه، والملك، والمال، بل وتحتال في سبيل الوصول إلى مرادها!

---

[1] رواه البخاري في صحيحه، باب: التوجه نحو القبلة (392).

وقاسوا هذه النفس على أنفسهم حتى ظنوا أنّ أي شخصٍ منهم يصلح لهذه المهمة طالما يصلح لها بشر، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:31].

وقالوا كما قال قوم صالح (عليه السلام) من قبلهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾[ص:8]؟!

لذلك حسم النبي ﷺ هذه القضية -التي كانت مثار الجدل بينهم- وقال لهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ فأنا مثلكم في الظاهر، ولكن في حقيقة الأمر بشريتي مخصوصة بحكم تحملي للرسالة وأعباءها، وللوحي وثقله.

وإلا فمن ذا يستطيع أن يتحمل الوحي الذي تقصر عن حمله الجبال الرواسي ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر:21]؟!

ومن ذا الذي يستطيع أن يتحمل ثقله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:5]؟!

فالفرق بيني وبينكم أنني أهل للوحي، ولا يتأهل للوحي إلا من صنعه الله صناعةً مخصوصة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[طه:39].

هذه الخصوصية أدركها أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ فكانوا يتعاملون مع الذات المحمدية على أنّها ذات مخصوصة لها صفات مخصوصة، وعلى أنّها هدية الله لهذا الكون، فكانوا يتبركون بكل شيء له علاقة بهذه الذات، حتى أنهم تبركوا بريقه الشريف كما قال عروة بن مسعود لأهل مكة قبل إسلامه!

فعلوا ذلك ليطهروا ذواتهم بهذه الذات الطاهرة؛ ذلك لأنهم (رضي الله عنهم) عرفوا أنّ الأرض كلها طهرت حينما لمستها قدماه الشريفتان، بل وأصبحت مطهرة لغيرها، كما أخبر بذلك سيدنا النبي ﷺ فقال: «وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا»[1].

وحينما كانوا يذهلون عن حدود هذه الخصوصية، أو يجهلها بعضهم كان النبي ﷺ يذكرهم بها، ويوقفهم عندها، ويعلمهم أنّه بشر لا كالبشر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: «كنتُ أَكتُبُ كلَّ شيءٍ أسمَعُه مِن رَسولِ اللهِ ﷺ أُريدُ حِفْظَه، فنَهَتْني قُرَيشٌ عن ذلِكَ وقالوا: تَكتُبُ ورَسولُ اللهِ ﷺ يقولُ في الغَضَبِ والرِّضا؟! فأمسَكْتُ حتَّى ذَكَرتُ ذلِكَ لرَسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: اكتُبْ فوَالَّذي نَفْسي بيَدِه ما خرَجَ مِنه إلَّا حَقٌّ».[2]

ولم لا؟! وهذه البشرية صُنِعت لتكون أهلًا لتلقي أعباء الرسالة، فإنّ الله تعالى قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:286] فلا بُدّ أن يهيئه الله لهذه النبوة قبل تكليفه بها وأن يهيئه لهذه الرسالة قبل تكليفه بأدائها! هذه الرسالة التي تحملها سيدنا النبي ﷺ قبل خلق الإنس والجِنّ، فقال: «كُنْتُ نَبِيًّا وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ»[3]، فكان رسولًا للكائنات جميعًا، إمّا رسالة تكليف، وإما رسالة تشريف،

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (438)، ومسلم في صحيحه (521) عن جابر الأنصاري رضي الله عنه.

[2] رواه أبو داود في سننه (3646)، وأحمد (6802).

[3] رواه أحمد في مسنده (20596)، والترمذي في العلل (683) وفي سننه (3609)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان 197/2.

رسولًا حتى إلى الرسل أنفسهم (صلوات الله وسلامه عليهم) بنص القرآن الكريم، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران:81]، وأكّد ذلك سيدنا النبي ﷺ فقال: «لو كان موسى بن عمران حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»[1].

ولأجل هذه الرسالة العامة الشاملة امتاز من اختاره الله لأدائها بميزات، واختُص بخصائص، منها أنّه حليمٌ صبور، واسع الأفق، سريع البديهة، لين الجانب، ودود في معاملة الناس، يحبهم ويحبونه، يدفع السيئة بالحسنة، ولا يغضب لنفسه، ويتحمل الأذى، ويستطيع معاملة الجميع كل على حسب حاله حتى يجد الجميع القدوة فيه، فكانت صناعته ومخصوصة، وكانت بشريته تخترق العوالم دون أن يتشكل أو يتغير، فينتقل من عالم الشهادة –وهو عالم الحس والمشاهدة الذي نعيشه– إلى عالم الغيب –وهو عالم ما وراء الطبيعة– بنفس هيئته وتركيبه دون أن تتغير هيئته أو يتشكل؛ ليعايش العالم الآخر بكل تفاصيله، كما تفعل الملائكة إذا انتقلت إلى عالمنا، وخير مثال لذلك ما حدث في رحلة الإسراء والمعراج

---

[1] رواه أحمد في مسنده (15156)، وأبو عبيد في غريب الحديث 3/28-29، وابن أبي شيبة 47/9، وابن أبي عاصم في السنة (50)، والبزار في كشف الأستار (124)، والبيهقي في شعب الإيمان (177)، والبغوي في شرح السنة (126)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 42/2.

حيث التقى بالأنبياء جميعًا وهم في عالم البرزخ، والتقى بالملائكة وهم في عالم الملكوت! وذلك لكي يتأتّى منه تبليغ الرسالة على أكمل وجه، وأقوم طريقة؛ فمعاذ الله أن يكلفه ربه ما لا يطيق، أو أن يكلفه ولا يعينه.

فليس لأحدٍ بعد ذلك أن يستغرب هذه الشخصية المثالية التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب، بل ستحدثنا هي عن نفسها من خلال أقوالها وأفعالها.

ستحدثنا عن نفسها من خلال تأثيرها على آلاف الرجال المثاليين أيضًا، بل من خلال تأثيرها على الزمان والمكان وعدم تأثرها بهما.

هذه الشخصية العجيبة التي وجد الجميع فيها قدوتهم، الغني والفقير على حدٍّ سواء، والصحيح والمريض على حدٍّ سواء... رغم ذلك لم تكن شخصيةً متناقضةً قط! بل كانت مضرب الأمثال في كلّ حالةٍ تمر بها.

يقول الكاتب والمؤرخ الفرنسي (لامارتين) في كتابه (تاريخ تركيا): «إذا أردنا أن نبحث عن إنسانٍ عظيم تتحقق فيه جميع صفات العظمة الإنسانية فلن نجد أمامنا سوى محمد الكامل».

الباب الأول

(الشَّخْصِيَّةُ المُحَمَّدِيَّة)

الفصل الأول (أخلاقٌ لازمةٌ وصفاتٌ ملازمةٌ)

قد يتَّصف أحدُهم بكثير من الصفات المثالية كالصدق والأمانة والتواضع... ولكنه يفتقد صفاتٍ مثالية أخرى كالحلم والكرم مثلًا!

وقد يتَّصف أحدهم بجميع الصفات المثالية ولكن لا يبلغ درجة الكمال فيها ولا تلازمه هذه الصفات طيلة عمره!

وقد يتصف أحدهم بهذه الصفات ويبلغ درجة الكمال فيها، وليس ذلك نابعًا من سلامة نفسه، واستقامتها، وإنما لمؤثر خارجي أثّر فيه كالرياء وبلوغ ما لا يُبلغ إلا بهذه الصفات!

أما شخصية النبي ﷺ فقد اتصفت بكل الصفات المثالية وبلغت الكمال فيها؛ لسلامة نفسه لا لمؤثر أثر فيها -وليس الحلم كالتحلم- فهذه الصفات لازمة له ﷺ لا عارضة على شخصيته تحركها المواقف يمينًا وشمالًا، وبالمثال يتضح المقال:

كان النبي ﷺ أمينًا حق أمين قبل البعثة وبعدها، أمينًا على كل شيء: أمينًا على الأموال، فقد كان مستودع أمانات القرشيين حتى بعدما جهر بدعوته وكفروا به، بل وناصبوه العداء، ونصبوا له شراك الغدر والخيانة، واصطفوا له صفّين ينتظرون خروجه ليضربوه ضربة رجل واحدٍ؛ لِتفقدَ البشرية خير من قام به وصف البشرية! ويصور القرآن الكريم موقفهم هذا تصويرًا بليغًا حطّ فعلهم من درجة الخيانة إلى درجة المكر، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:30].

في مثل هذه المواقف لا تعتبر ردة فعل الطرف الآخر خيانةً، وإنّما تُعتبر بمثابة العين بالعين، والسن بالسن، والبادئ أظلم.

في مثل هذه المواقف لا تملي النفس على صاحبها الذي وقع عليه الظلم وخانه الناس إلا الجزاء العادل على أقل تقدير لهؤلاء الظلمة، إن لم تُمل على صاحبها التفنن في إذلال من ظلمه وخانه!

ولكن أمانة النبي ﷺ لم تكن أمانة مواقف، ولم تكن تحركها العواطف، ولكنها صفة جِبليّة في حضرته، فعيّن من يرُد أمانتهم عليهم.

ولا أبالغ إن قلت: بل يحفظها عليهم حتى يطلبوها أو يحين وقت أدائها...

واختار سيدنا النبي ﷺ لهذه المهمة رجلًا من أهل بيته، وليس فقط من أصحابه، وهو سيدنا الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وكأنّها رسالةٌ من حضرته أنّ القضية شخصية قبل أن تكون دينية، فأنا أمين وإن لم يأمرني الوحي بالأمانة، يتحمل عني الأذى رجل من أهل بيتي وليس فقط من أتباع شريعتي.

وهذه الأمانات لم تكن أموالًا فحسب، بل هي أيضًا أسرار استودعها القرشيون رسول الله ﷺ، فانتدب رسول الله ﷺ لهذه الأمانات الشديد القوي الذي يحفظها من الغيلة عليها.

فكان رسول الله ﷺ مستودع أسرار القرشيين رغم عداوتهم له، ومع ذلك فلم تجره حماقات القرشيين إلى إفشائها، فقد استودعوه أسرارهم ولسان حالهم يقول[1]:

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلَّا كلُّ ذِي خَطَرٍ والسِّرُّ عندَ كرامِ النَّاسِ مكْتُومُ
والسِّرُّ عندَكَ في بابٍ له غَلَقٌ قدْ ضاعَ مفتاحُهُ والبابُ مردُومُ

وكان ﷺ أمينًا على الأعراض أيضًا بشهادة أعداءه، لا يغتاب أحدًا، ولا يرمي أحدًا بما ليس فيه، ولا يجعل هتك العِرض جزاءً لمن ظلمه أو أخطأ في حق، هذا ما شهد به أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه أمام هرقل عظيم الروم، وشهد به أيضًا لما سمع خبر زاج النبي ﷺ من ابنته أم حبيبة.

فحينما هاجرت السيدة أم حبية بنت أبي سفيان (رضي الله عنهما) مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة تنصّر زوجها، ومات نصرانيًا في بلاد الحبشة -أثيوبيا حاليًّا- وتركها وحيدةً تقاسي الغربة بلا زوجٍ ولا أهلٍ، ولا تستطيع الرجوع إلى أهلها الذين فرّت منهم بدينها وعقيدتها، فأصبحت في موقف لا تُحسَدُ عليه، وخُيِّرت بين أمرين أحلاهما مُرّ: إما البقاء في نَصَب وتعب، وإما الرجوع إلى العذاب المهين!

فلما علم النبي ﷺ بموقفها ذلك أرسل إليها يخطبها لنفسه، ويضمها إلى بيته؛ انتشالًا لها من هذه الورطة الحقيقة التي لا يشعر بها إلا أهل النجدة والشهامة والشجاعة والمروءة، ووكل النبي ﷺ

[1] الأبيات في المحاسن والأضداد للجاحظ، باب: محاسن كتمان السر 27.

من يعقد له عليها حتى ترجع إليه في المدينة المنورة متى توفرت الرفقة الآمنة، ومتى عزم المسلمون هناك على العودة إلى أرض الحجاز التي طال حنينهم إليها، وشوقهم لكل ما فيها.

فلما علم أبوها أبو سفيان بن حرب بهذا الزواج -ولم يكن أسلم بعد، بل كان زعيم المشركين وقتها- قال كلمةً حفظها التاريخ في ذاكرته قبل أن يحفظها الرجال في صدورهم، قال: نِعم الفحل لا يُقدَع أنفه.[1]

أي: نعم الرجل الذي لا نعيب عليه خُلقًا! نعم الحافظ للعرض؛ لأنّه يعلم أنّ أمانة النبي ﷺ صفة لازمة لشخصه الكريم لم يكتسبها من نبوة ولا رسالة؛ لأنّ أبا سفيان كان يُكذب بهذه النبوة وهذه الرسالة وقتها.

وكان النبي ﷺ أمينًا على الأنفس لا يغدر بمن استجار به، ولا يُخيّب أحدًا رجاه، فيروي لنا سيدنا جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنّه غزا مع رسول الله ﷺ قِبل نَجد.

فلما قفلوا -أي: رجعوا- أدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضَاهِ -وهو الشجر كثير الشوك- فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر.

ونزل رسول الله ﷺ تحت سمُرَة فعلَّق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «إنَّ هذا اخْتَرَطَ

---

[1] لا يُقدَعُ أنفُهُ: بالدال، أي لا يُضرَبُ أنفه، وذلك إذا كان كريمًا. تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن 44/9، والعقد الفريد 96.

عَلَيَّ سَيْفِي، وأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فَقالَ: مَن يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلتُ: اللَّهُ، -ثَلَاثًا-» ولَمْ يُعَاقِبْهُ وجَلَسَ.[1]

فالرجل قد استجار برسول الله من رسول الله فأجاره رسول الله ﷺ، ولم يردّ له الإساءة بالإساءة، وكان أمينًا على دمه.

ولقائلٍ أن يقول: ما دام النبي ﷺ قد بلغ الكمال في صفة الأمانة، وكان مثاليًّا في التصرف في جميع المواقف التي اختُبرت فيها أمانته، فلماذا لم يُضرَب به المثل في الأمانة كما ضرب الناس المثل بـ(السموأل) في الأمانة والوفاء بالعهد؟

والسموأل هذا رجلٌ من اليهود يُضرَب به المثل في الأمانة، والوفاء بالعهد.

وحاصلُ قصته أنّ رجلًا سرق دروعًا فاستودع السموأل هذه الدروع، فجاء أصحاب الدروع ليأخذوا دروعَهم من السموأل فأبى عليهم؛ لأنها أمانةٌ تحمَّلَها!

فأخذوا ولَده، وقالوا له: إما أن تردَّ علينا دروعنا وإما أن نذبحَ ولدَك أمامك، فرضيَ بذبح ولدِه بديلًا عن إعطائهم الدروع؛ فذبحوه أمامه!

والحقيقة هذا نوعٌ من عدم التوازن النفسي، والموازنة الخارجية بين الحقوق والواجبات، فإنه وإن كان أدى حقًّا فقد فرّط في حقوق، وإن كان أدى أمانة المخلوق فقد فرط في أمانة الخالق!

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (2910)، ومسلم في صحيحه (843) عن جَابِرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنْهما.

ولا يمكننا بحالٍ أن نُصنِّفَ هذا الفعل ضمن الأعمال الصالحات التي يُحمَد عليها صاحبُها، فالإفراط في الشيء الحسن كالتفريط فيه.

ومكمنُ الحُسن في صفات سيدنا النبي ﷺ أنّه يبلغ الكمال في صفة دون أن يفرّط في أختها.

يقول (السير موير) الإنجليزي في كتابه (تاريخ محمد): «إنّ محمدًا نبي الإسلام لُقِّب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده؛ لشرف أخلاقه وحسن سلوكه، ومهما يكن هناك من أمرٍ فإنّ محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله، وخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل، ومفكري العالم».

كذلك كان النبي ﷺ مضرب الأمثال في العفو والصفح، وإقالة العثرات، والتجاوز عمن أساء في حقه، وكانت هذه الصفة نابعة من سلامة صدره لا من استعطاف الناس له، ولا أدلّ على ذلك من موقفه ﷺ من أهل مكة يوم فتحِ مكة، فلم ينتظر استعطاف أهلها حتى يعفو عنهم، ولكنه أصدر قرار العفو عنهم قبل التحرك من المدينة، فنهى أصحابه عن قتل الأبرياء، ومن لم يبدأهم بالقتال، ولما أشرفوا على مكة، استشاطت الحمية في قلوب بعض الصحابة برؤية من آذاهم، وأخرجهم من أرضهم وديارهم؛ فبدرت من بعضهم مقولة لفتت انتباه النبي ﷺ واستوجبت ردة فعل قوية من حضرته، فقد قال أحد حاملي اللواء وهو سيدنا سعد بن عبادة (رضي الله عنه): «اليومَ يومُ

الملحَمَة!»؛ فأرسل إليه النبي ﷺ من يأخذ الرايةَ منه ويقول له: «بل اليومُ يومُ المرحمة!»، وأعطى الراية لغيره.

ولم يذلّهم النبي ﷺ بعفوه عنهم، ولكنه جبر بخاطرهم كعادته، وأنزلهم منازلهم، فهم سادة العرب، فقد جبر بخاطرهم بجبران سيدهم، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ولم يقصد إذلالهم بقوله: «ماذا تظنون أنّي فاعل بكم؟!» ولكنه قصد توبيخهم ومحاكمتهم لأنفسهم، وكأنه يقول لهم: ما دمتم تعرفون أنني كريم وابن الأكرمين، فلماذا أهنتموني وكذبتموني؟!

ولله در الشاعر إذ يقول[1]:

إذا ذكرتُ أياديك التي سلفت مع قبحِ فعلي وزلاتي ومجترمي
أكادُ أقتلُ نفسي ثم يُدركني علمي بأنّك مجبولٌ على الكرمِ

وقد كان ﷺ يسامح في حق نفسه، فقد كان يدعو للكفار الذين ضربوه وأدموا وجهه، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»[2]، أما حينما يتعدى الأذى إلى غيره فكان لا يهدأ حتى ينتصر لصاحب الحق، ويرد الظلم عن المظلوم، يقول سيدنا أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه): سابتُ رجلًا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر! أعيَّرته بأمه؟! إنّك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه

---

[1] الأبيات من قول الأمير سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن منقذ جد أسامة بن مرشد من الاستعطاف، وردت في خريدة القصر 357/2، والدر الفريد (1349) 425/2، والمستطرف 202.

[2] الحديث رواه البخاري في صحيحه (3290)، ومسلم في صحيحه (1792).

فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإذا كلفتموهم فأعينوهم.[1]

وكان ﷺ هينًا لينًا يحب السهولة واليسر والسماحة في كل الأمور، وكان يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:86]، ويُقال عنه: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا»[2].

وكان ﷺ يخفضُ جناحه للناس جميعًا فلا يتكبر على أحدٍ، ويفرش ردائه للضيوف ويقول: «أنزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهم»[3]، ويُقرّب الناس وإن أبعدتهم هيبته، فيقول للتي ارتعدت هيبةً من حضرته حينما رأته: «يا مِسكينَةُ عليكِ السكينةُ»[4]، ويقول للذي ارتعد هيبة من حضرته: «مَا أَنَا بمَلَكٍ! إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكلُ الْقَدِيدَ»![5]

وكان يُمازح الصغير والكبير ولا يقول إلا حقًّا وصدقًا، فهو الذي لم يجرب عليه الناس كذبة في حياته، وما نقل ذلك من

---

[1] الحديث رواه البخاري في صحيحه (30)، ومسلم في صحيحه (1661).

[2] روى البخاري في صحيحه (274)، ومسلم في صحيحه (2327) عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله عز وجل».

[3] رواه أبو داود في سننه (4842).

[4] أخرجه الطبراني 446/25، وقال الهيثمي 12/6: رجاله ثقات. وأخرجه أيضًا ابن سعد 317/1.

[5] رواه ابن ماجه في سننه (3312) عن أبي مسعود. و(القديدُ) اللحم المملَّح المجفَّف في الشمس.

الناس أحد، حتى أنّ كفار قريش لم يعتقدوا فيه الكذب في دعوته كما يقول ربنا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:33].

وكان ﷺ أشجع النّاس، يقول سيدنا علي (رضي الله عنه): «كُنّا إذا حمي الوطيس -أي: اشتدَّت الحرب واستعرت- اتَّقَيْنا برسولِ اللَّهِ فيكونُ أقرَبَنا للعَدُوّ»[1].

وكان أكرم الناس من غير رياء، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر...

حتى يقول للسائل: «ما عندي شيءٌ، ولكن ابتَعْ عَلَيَّ، فإذا جاءني شَيءٌ قَضَيتُه»[2].

يا مَنْ على الجود صاغ الله راحته فليس يُحسن غير البذل والجودِ
عمت عطياك من بالأرض قاطبةً فأنت والجودُ مخلوقانِ من عودِ[3]

وكان ﷺ حَسَن العِشرة يُحبّه الناس جميعًا، وكان رحيمًا شفوقًا يقول: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزِع من شيءٍ إلا

---

[1] رواه ابن الجعد في مسنده (2561)، واحمد في مسنده (1042)، وأبو يعلى في مسنده (302).

[2] روى الترمذي في الشمائل (355)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (390) عن عمر بن الخطاب «أنَّ رَجُلًا جاء إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فسأله أن يُعطِيَه، فقال النَّبيُّ ﷺ: ما عندي شيءٌ، ولكن ابتَعْ عَلَيَّ، فإذا جاءني شَيءٌ قَضَيتُه، فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ قد أعطَيتَه، فما كلَّفَك اللهُ ما لا تَقدِرُ عليه، فكَرِهَ النَّبيُّ ﷺ قَولَ عُمَرَ، فقال رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ: يا رَسولَ اللهِ أنفِقْ ولا تخَفْ مِن ذي العَرْشِ إقلالًا، فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ، وعُرِفَ البِشْرُ في وَجْهِه لِقَولِ الأنصاريّ، ثُمَّ قال: بهذا أُمِرْتُ».

[3] الأبيات لأبي وجزة السلمي في المحاسن والأضداد 29، والمستطرف 86.

شانه»[1]. وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «منْ يُحرَمِ الرِّفقَ يُحرَمِ الخيرَ كُلَّه»[2].

بلغ من رفقه ولين جانبه أنَّه لم يقطع الأعرابي الذي بال في المسجد عن بوله، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ وهَرِيقُوا علَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِن مَاءٍ، أوْ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ، فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.»[3] وفي رواية أخرى: أنّ هذا الأعرابي لما انتهى من بوله جلس بجوار النبي ﷺ وقال: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا![4] وذلك لأنّه لم يجدْ من بينهم من يرأف به سوى النبي ﷺ.

وكان يُحب التيسير في كل الأمور، تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[5]، وكان يُخبر بفضل بعض الأعمال ولا يفرضها على الناس حتى لا يشقّ عليهم، ولك أن تتأمل قوله: «لولا أن أشقّ على

---

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد (365/ 469) 179، ومسلم في صحيحه (2594) عن عائشة (رضي الله عنها).

[2] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (25303)، وأبو داود في سننه (4809).

[3] رواه البخاري في صحيحه (217). و(هريقوا): صبوا، و(السَّجْل) و(الذّنُوب): الدلو الكبير الممتلئ ماءً.

[4] الخبر رواه البخاري في صحيحه (5664) عن أبي هريرة.

[5] رواه البخاري في صحيحه (274)، ومسلم في صحيحه (2327) عن عائشة (رضي الله عنها).

أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[1]، وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء»[2]، وقال: «لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه».[3]

كُلُّ ما ذكرته بمثابة العناوين لآلاف الصفحات التي تُكتب في أخلاق هذا النبي الكريم، وهذا الإنسان المثالي، الذي شهد له العدو قبل الصديق، والمُبغض قبل المُحب، حتى ولو بفلتةٍ من فَلتات لسانه، وما أنطقه إلا عظمة هذه الشخصية التي أثَّرت في الآلاف بمجرد رؤيتها، والملايين بمجرد السماع عنها.

يقول المؤلف الكبير (ماكس فان برشم) في مقدمة كتابه (العرب في آسيا): «الحقُّ أنَّ محمدًا هو فخر للإنسانية جمعاء، وهو الذي جاءها يحمل إليها الرحمة المطلَقَة فكانت عنوان بعثته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:107]».

---

[1] رواه الترمذي في سننه (22)، وعبد الرزاق في مصنفه (5746)، وابن أبي شيبة في مصنفه (1802)، وأحمد في مسنده (607).

[2] رواه عبد الرازق في مصنفه (2106)، وابن أبي شيبة في مصنفه (1787). وأحمد في مسنده (7412).

[3] رواه الترمذي في سننه (167) عن أبي هريرة.

الفصل الثاني (الثَّبَاتُ الانْفِعَالِيّ)

والذي أقصده من هذا العنوان هو تحليل ردة الفعل في مختلف المواقف التي يمر بها الإنسان وتمر به، في المواقف التي تثير القلق، والتي تثير الحزن، والتي تثير الفرح.

والنبي ﷺ قد مرّ بهذه المواقف كأي بشر، ولكن لم يتعامل معها تعامل سائر البشر، وفي نفس الوقت لم يتعامل معها تعاملًا يضع أتباعه في حَرَج عند الاقتداء به؛ بحيث يكون مفرطًا في صفات المسامحة، والعفو، والتواضع، فيضعها في غير محلها، فيجرؤ عليه أصحاب القلوب المريضة.

فالإنسان مبتلًى بكل شيءٍ حوله، وبكل موقف يمر به، كما قال ربنا (جل جلاله): ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، أي في كل شيء حولكم، فـ«ما» نكرة تُفيد العموم، أي: ليختبركم في كل شيء خلقه من حولكم، ويحاسبكم على حسب المعطيات التي أعطاها لكم، والإمكانيات التي مكنكم منها.

فالله (جل جلاله) قد ابتلاك بعملك، وسيحاسبك على أداء العمل على قدر ما أعطاك من قوة وطاقة وصبر وتحمل، وأنت مبتلًى بوالدَيك: كيف تتعامل معهما؟ أتحسن إليهما أم تُسيء؟

مبتلىً بزوجتك، وأصدقائك، وبعلمك، وبعملك، وبقوتك -في لحظات القوة، وبضعفك- في لحظات الضعف، وبفرحك

حينما تفرح، وبحزنك حينما تحزن... كيف ستتعامل مع هذه المواقف؟

أستزيدك قربًا من الله أم ستزيدك بُعدًا؟ أستزيدك صلاحًا في المجتمع أم ستزيدك تمرّدًا عليه؟

إن كانت الأولى فأنت إنسانٌ سَوي، وإن كانت الأخرى فأنت إنسان مضطرب يميل بك هواك، يوقفك حيث يريد، ويذهب بك حيث يريد! ويحركك الناس إذا أرادوا تحريكك، ويملكون زمام قيادتك في المجتمع كما يملك صاحب الدابة زمام دابته!

ولا يقف الأمر عند هذا المشهد، أو هذا الموقف الذي تمر به، بل يتعداه إلى مدى تأثير هذا المشهد على مسلسل حياتك، وعلى كمال صفاتك!

فالقوي حقًّا هو الذي يؤثِّر في الموقف ولا يتأثر به، والقوي فعلًا هو الذي يُقال في حقه: لولا وجوده ما آل هذا الموقف إلى الخير.

والإنسان السوي هو الذي لا يُشكِّل عبئًا على أحد في أي موقفٍ كان، فلا يكون سببًا في زيادة حزن حزين، أو عمق جراح مجروح.

وعند قراءتنا في كتب التاريخ والسير نجد أنّ الشخصية المحمدية كانت مثاليةً في ردود أفعالها، لم تكن لتزيد الموقف اشتعالًا في يومٍ من الأيام، ولم تكن سببًا في إيذاء أحدٍ بالقول أو بالفعل، وبالمثال يتضح المقال:

في حالة الفرح نجد أنّ الشخصية المحمدية لم تُسرف على نفسها في الفرحة بحيث يؤول بها تغيير هذه الحالة في لحظة

ما إلى الأمراض النفسية والعصبية، بل كان يترك مجالًا واسعًا لنهشات الأيام، وفجأة التغيير؛ وعلمه بالدنيا وتقلب حالها دفعه إلى هذا الاستقرار النفسي الذي يعبر عنه بقوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، ولَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[1]، ولم تخرجه الفرحة يومًا عن حد الوقار، بل كانت تظهر على وجهه علامات ذلك للمتأمل، فعن كعب بن مالك (رضي الله عنه) قال: كان رسول الله ﷺ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وجْهُهُ، حتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه»[2].

وربما عبّر عن فرحته بالكلام جبرًا للخواطر، كما حدث عندما صادف رجوعه من خيبر قدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فقال ﷺ: «لا أدري بأيهما أُسَرّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»[3].

كذلك لم يكن النبي ﷺ يفرح بين يدَي محزون، بل يفرح لفرح الناس ويحزن لحزنهم، وكأنّ الذي أصابهم قد أصابه!

كذلك في حالة الحزن لم يكن النبي ﷺ من أهل الشكوى لغير الله، وكأنّ قول الشاعر الآتي قد قيل فيه، وهو[4]:

يا سائلي عما تجدّدَ لي ... الحال لم ينقص ولم يَزِدِ
وكما علمتَ فإنّني رجلٌ ... أفنى ولا أشكو إلى أحَدِ

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (6120)، عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

[2] رواه البخاري في صحيحه (3363)، عن كعب بن مالك (رضي الله عنه).

[3] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (34380)، والحاكم في المستدرك (4293)، عن جابر بن عبد الله.

[4] نُسِب البيتان إلى بهاء الدين زهير، وهما في ديوانه 69.

فهذه الصفة من صفات الرجال الكُمّل، وأكمل من ذلك أن يخفي وجهُهُ حزن قلبه، وهذا هو حال النبي ﷺ فقد كان دائم البشر، طلْق الوجه، دائم البسمة، كما يقول سيدنا جرير بن عبد الله البجلي: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ ولا رآني إلا تبسّم. ومع ذلك كان متواصل الأحزان، دائم التفكير، حزنه في قلبه، اللهم إلا أن تغلبه عيناه، وليس أدلّ على القلب من العين.

وكان الصحابة (رضي الله عنهم) يستغربون منه ذلك، فلم يعهدوه يشاركهم غير الفرحة والبسمة.

فعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) قال: كُنّا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أنّ ابنًا لها في الموت! فقال النبي ﷺ للرسول الذي أرسلته: ارجع إليها فأخبرها أنَ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده لأجلٍ مُسمّى، فمُرها فلتصبر ولتحتسب.

فعاد الرسول إليه، فقال: إنّها قد أقسمت يا رسول الله لتأتينها! فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عُبادة، ومعاذ بن جبل، وانطلقتُ معهم، فرُفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنّها في شنّة -من شدة سكرات الموت- ففاضت عيناه ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟! يستغرب من بكاء النبي ﷺ ؛ لأنه لم يعهد عليه ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: هذه الرحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء.[1]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (1224)، ومسلم في صحيحه (923) عن أسامة بن زيد.

لم يكن النبي ﷺ يشاركهم حزنه، ومع ذلك كان يشاركهم أحزانهم! يضحكه ما يضحكهم، ويبكيه ما يبكيهم! ويشاركهم في عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة حزنهم وفرحهم!

فعن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) أنّها زفَّت امرأة من الأنصار إلى رجلٍ من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «يا عَائِشَة! هَلْ كَانَ معكُم لهوٌ فإنَّ الأنصارَ كانوا يُحِبونَ اللّهْوَ»[1]، وكأنّه يطلب منها أن تنتقل بفكرها من مكة إلى المدينة كما انتقلت بجسدها، وأن تنصهر في هذا المجتمع، ولا تأتي على الناس بما يستغربونه وينكرونه، وتعيش بينهم كأنها منهم، وفي هذا الحديث ما فيه من الرسائل إلى الذين حصروا الإسلام في لباس معين ومجتمع معين، وليتهم يفهمون!

وقد كان للأنصار في المدينة تراث خاص بهم من أشعار وقصص يروونها في أعيادهم، ولم ينههم النبي ﷺ من روايتها حتى في عيدَي الفطر والأضحى، بل كان يسمعها منهم، ويتفاعل معها أحيانًا. فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تُغنيَّان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكرٍ (رضي الله عنه)، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا.[2]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (4867).

[2] رواه البخاري في صحيحه (907)، ومسلم في صحيحه (892).

وأكثر من ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يلبس لبس البلدة التي سيفتحها حتى لا يستغربه أهلها، كما ورد في صحيح البخاري من حديث المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) أنَّ النبي ﷺ كان يلبس جُبةً رومية ضيقة الكُمَّين وهو ذاهبٌ إلى تبوك لملاقاة الروم.

وليس هذا من باب الخدعة الحربية كما فعل نابليون بونابرت عند هجوم الحملة الفرنسية إلى مصر! ولا ما أشاعه أدولف هتلر الزعيم الألماني في الحرب العالمية الثانية من حبه للمصريين! وأشاع بعض المنحازين له أنه مسلم ويسمى «محمد هتلر»!

بل ذلك من باب إرسال رسالة طمأنينة لسكان البلدة أنَّ الوضع لن يتغير، ولن يعيشوا في غربة في وطنهم، والدليل على ذلك أنَّ هذا هو الذي حدث بالفعل، بخلاف الفساد والإفساد الاستعماري الذي خلفته الحملة الفرنسية من قتلٍ وتدميرٍ واستيلاءٍ على الأملاك، وكذلك الخراب الذي جنته مصر ولا زالت تجنيه من الألغام التي زرعتها بريطانيا في العَلَمين وغيرها في الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن لنا فيها ناقة ولا جمل!

كان النبي ﷺ يفعل ذلك؛ لأنّ مشاركة الناس في فرحهم وحزنهم وعاداتهم طبيعة فيه وصفة جُبل عليها، ومن خالط الناس نالته قلوبهم وألسنتهم وأيديهم، وتعرّض على أيديهم للفرح والحزن والغضب والرضا...

وليست العبرة في الشخصية المثالية هي تلبسها بحالات الخير كالفرح والرضا، وعدم تلبسها بضدها كالحزن والغضب، وإنما

العبرة في كيفية التعبير عن هذه الأحوال، فالنبي ﷺ كان يغضب، ولكن: متى يغضب؟ ومم يغضب؟ وممن يغضب؟ وكيف كان يعبر عن غضبه؟ والأخيرة هي مربط الفرس!

فالنبي ﷺ كان مسالمًا في غضبه، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، ولكن إذا انتهكت حرمات الله لم يكن يقوم لغضبه شيء.

كان مثاليًا في التعبير عن غضبه حتى أنّه كان يُعبر عنه بنظرة، وأحيانًا بابتسامة، وأحيانًا بالإعراض، وأحيانًا بالاعتراض على ما يستدعيه كل موقف، ولم يكن من السهل أبدًا أن يتحكم أحد في ردة فعله من خلال استثارته بالكلام والأفعال، وماذا بعد أن كان القرشيون يقعدون له بكل صراط يسبونه ويدعونه «يا مذمم» فيقول: «أَلَا تَعْجَبُونَ كيفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُمْ؟! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا ويَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ».[1]

ردود أفعال لا تثير المشكلات، ولا تثير المشاعر، ولله در القائل[2]:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

كان ﷺ محللًا مثاليًّا للمواقف وما يُقال فيها، ولم يكن يغضب لمجرد أنّ المتكلم عدو له! وقد أمر الله أتباعه بالاقتداء به في هذه الصفة المثالية إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

[1] رواه البخاري في صحيحه (3533) عن أبي هريرة.

[2] ورد البيت في الكامل للمبرد (61/3)، وفي الصحاح للجوهري (882/5).

لِلتَّقْوَى﴾[المائدة:8] أي: لا تدفعكم عداوة أحد إلى ظلمه وعدم العدل في مخاصمته ومحاكمته.

والدليل على أنّ هذه الصفة كانت في حضرته شخصية قبل أن تكون نبوية أنّ أبناءه ورثوها عنه من بعده، فقد روي أنّ الإمام علي زين العابدين بن الحسين (رضي الله عنهما) كان يطوف بالكعبة يومًا، فحرضوا عليه أحد السفهاء ليسبه ويشتمه، وقالوا له: إن استثرت غضبه حتى يسبك ويشتمك أعطيناك ألف درهم! فانتظر هذا السفيهُ الإمام خارج المسجد، فلما رآه خارجًا انهال عليه بوابلٍ من السباب والشتائم والرمي بالصفات التي لا يتصف بها الفساق فضلًا عن أئمة الهدى!

كل ذلك وسيدنا علي زين العابدين (رضي الله عنه) ساكت لا يتكلم، فلما انتهى قال له: يا أخي! والله إنّ كل ما قلته فيَّ، وأقبح من ذلك ستره الله علينا! فقال الرجل: أشهدُ أنَّك ابن رسول الله ﷺ.

فلما سأله عما حمله على ذلك، أخبره باتفاقه مع بعض الحاسدين، فأعطاه سيدنا علي ألف درهم، وقال له: إن نزلت بك حاجةٌ فأتنا ولا تقف على أبواب اللئام.

ولقد كان النبي ﷺ يغضب، ولكن كان يختلف تعبيره عن الغضب بين أن يكون هذا الخطأ في حقه، وأن يكون في حقّ غيره، فإذا كان في حقِّه كان التعبير عنه بالإعراض، أي: يُعرَض ولا يُرد كما كان يفعل مع من يسبه ويشتمه، وإذا كان في حقِّ غيره فلا بُدّ

من وقفةٍ حتى لا يستمرّ المخطئ على الخطأ، والظالم على الظلم، سواءً كان ذلك قبل الرسالة أو بعدها...

كان النبي ﷺ يغضب حتى لا يتحول هذا الخطأ إلى ظاهرة اجتماعية لا يمكن السيطرة عليها، وقد كان يغضبه التفريق بين الناس على أي أساسٍ كان: على أساسٍ قَبَليّ كما حدث في أمر المرأة المخزومية التي سرقت.

فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقالوا: ومَن يُكَلِّمُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقالوا: ومَن يَجْتَرِئُ عليه إلَّا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قالَ: إنَّما أهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.[1]

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يغضب لو كان التفريق بين الناس على أساس اللون مثلا، كما حدث مع سيدنا أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه)، هذا الصحابي الجليل الذي له ما له في قلب النبي ﷺ حتى قال فيه: «ما أَظَلَّتِ الخضراءُ، ولا أَقَلَّتِ الغَبْراءُ من ذي لهجَةٍ أصدقَ ولا أَوْفى من أبي ذَرٍّ»[2]، ولكنه وقع في المحظور

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (3288)، ومسلم في صحيحه (1688) عن عائشة (رضي الله عنها).

[2] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (32265)، وأحمد في مسنده (6519)، والترمذي في سننه (3801) عن عبد الله بن عمرو.

يومًا ما، وأوصله غضبه إلى أن قال لسيدنا بلال بن رباح (رضي الله عنه): يا ابن السوداء! فكان جزاء غضبه أن يُرَد بغضب مثله بل بغضب أشد فلا يقوى سيدنا أبو ذر على رده ولو بكلمة، وأن يعلم أنّ هذه الكلمة ليست من المروءة ولا من الإنسانية في شيء، وأنّه لا ينبغي أن يوصله الغضبُ إلى درجة لا يعي فيها ولا يُدرك ما يقول، فقال رسول الإنسانية ﷺ حينما علم بذلك: «يا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[1].

وكان يغضب ﷺ كذلك إن كان التفريق على أساس الخِلقة من طولٍ وقِصَرٍ وقوةٍ وضعف، فعن معاوية بن قرة (رضي الله عنه): عن ابن مسعودٍ (رضي الله عنه) أنّه كان يجني لهم نخلة، فهبت الريح فكشفت عن ساقيه، فضحك الصحابة من دقة ساقيه، فقال النبي ﷺ: أَتَضْحَكُونَ من دِقَّةِ ساقَيْهِ ! و الذي نفسي بيدِه لَهُمَا أَثْقَلُ في الميزانِ من جَبَلِ أُحُدٍ. أي: قيمةً ومكانةً وقدرًا، فكم مرةً حملته في صلاته وجهاده، وكم سعى بها للإصلاح بين الناس!

وكان يغضب ﷺ إذا كان التفريق على أساسٍ عُنصريّ، فهو القائل: « أَيُّها النَّاسُ، أَلَا إنَّ رَبَّكم واحِدٌ، وإنَّ أباكم واحِدٌ، أَلَا لا فَضْلَ لِعَربيٍّ على أَعجَميٍّ، ولا لِعَجَميٍّ على عَرَبيٍّ، ولا لِأَحمَرَ على أَسوَدَ، ولا أَسوَدَ على أَحمَرَ إلَّا بالتَّقْوى، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بَلَّغ رسول الله ﷺ.[2]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (30)، عن المعرور بن سويد.

[2] رواه أحمد في مسنده (23489) عَنْ أَبِي نَضرْة.

وكان يغضبُ إذا كان التفريق على أساسٍ جِنسي، فهو القائل: «النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ»[1].

وكان يغضب حتى ولو كان التفريق على أساسٍ دينيّ، فالإنسانية تسع الجميع.

فعن سهل بن حنيف (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ مرّت به جِنازة يهوديّ فقام، فقِيل له: إنّها جنازة يهودي؟ فقال: «أليسَتْ نفسًا؟!»[2]

فهم ظنوا أنّ اختلاف الدين كفيلٌ بأن يفرِّق بين الناس في التعامل الإنساني، ولكن سيدنا النبي ﷺ علمهم أنّ هذه لا تمنع تلك، فلا يمكن بحالٍ أن يُعارض الدين صفةً من صفات الفطرة الإنسانية، بل يأتي الدين ليؤكدها، ويشدد على التمسك بها.

وكان يغضب ﷺ إذا رأى تحكمًا من أحدٍ على باطن أحد، أو أن يؤخذ الناس بالظنون، كما فعل سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) في إحدى السرايا.

فعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، وصبّحنا القوم على مياههم، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله! فكفَّ عنه الأنصاري، وطعنتُه برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!

---

[1] رواه أبو داود في سننه (236)، والترمذي في سننه (113) عَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها).

[2] رواه البخاري في صحيحه (1312)، ومسلم في صحيحه (690).

قلت: يا رسول الله! إنّما كان متعوذًا -أي: خائفًا من القتل، فقال رسول الله ﷺ: أقتلْتَهُ بعدَمَا قال: لا إله إلا الله؟! فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.[1]

وفي رواية أخرى: «أفَلا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ؟!»[2] أي: وما يدريك أنّه قال ذلك خوفًا من السيف، فربما قالها موقنًا بها، راجعًا إلى مولاه، خالعًا ما كان عليه من عبادة المخلوق، وإتيان المنكرات!

وكان ﷺ يغضب عندما تُنتهك الحقوقُ وتُخترق القوانين، حتى أنَّه كان يغضب إذا انتهك الإنسانُ حقَّ نفسه!

فعن أنس (رضي الله عنه) قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقالَ: ما هذا الحَبْلُ؟ قالوا: هذا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ به -أي: تصلي قيام الليل فإذا تعبت استندت إلى الحبل ولا تقطع صلاتها- فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[3]. أي: لا يُكلف نفسَه فوق طاقتها حتى في العبادة.

هذه الشفقة من نبي ورسول كلَّفه الله أن يأمر بالطاعة، والعبادة، وزيادة القربات!

نعم لأنه كان إنسانًا في المقام الأول، وراحة للإنسانية كلّها من كل تعب ونصب، الأمر الذي أطلق لسان المؤلف الكبير (ماكس

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (6478)، ومسلم في صحيحه (96).

[2] رواية مسلم في صحيحه (96) عن أسامة بن زيد، وهذا حديث ابن شيبة، وهو في مصنفه (28932).

[3] رواه البخاري في صحيحه (1099)، ومسلم في صحيحه (784).

فان برشم) أن يقول في كتابه (العرب في آسيا) -كما ذكرنا آنفًا: «الحق أنَّ محمدًا هو فخرٌ للإنسانية جمعاء، وهو الذي جاءها يحمل إليها الرحمة المطلقة، فكانت عنوان بعثته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:107]».

والغضب قد يكون بدافع إظهار القوة والغلبة، والرسول ﷺ كان يملك ومع ذلك كان يعفو. وقد يكون الغضب بدافع إرواء الغليل والتشفي في الناس، وهذا أمرٌ لا يفعله إلا ناقص يرى الناس حوله خيرًا منه، فكيف أنت بالنبي الذي يراه من حوله خيرًا منهم؟!

***

والناس في الغضب أربعة أقسام:

رجل سريع الغضب، بطيء الرجوع عنه وهو شرهم.

ورجل سريع الغضب، سريع الرجوع عنه، وهو خير من الأول.

ورجل بطيء الغضب، بطيء الرجوع عنه، وهو خير منهما.

ورجل بطيء الغضب، سريع الرجوع عنه، وهو خير من الجميع.

وخير من هؤلاء جميعًا: رجل متوازن، سريع الغضب فيما يستوجب سرعة الغضب؛ لتلاشي شرٍّ أكبر، وبطيء الغضب في موقف يزيده الغضب اشتعالًا! هكذا كان النبي ﷺ يقدر لكل شيء قدره، يقول واصفه: إذا غضب لم يقم لغضبه شيء.

ولا يكون ذلك إلا لمن يغضب للحق؛ لأنّ الذي يغضب للباطل لا يقره الناس، خاصةً إذا كانوا أهل مروءة كالعرب عمومًا، والقرشيين على وجه الخصوص.

وقد كان النبي ﷺ شديد التحكم في نفسه، وفي انفعالاته، وقد ترجم ذلك بقوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».[1]

هذا الثبات الانفعالي حيَّر أعداءه في كيفية زعزعته حتى يكون رجلًا متلونًا يؤثر الناس فيه حتى ولو بآرائهم، فيأتيه «زيد بن سعنة» -وكان من أحبار اليهود- يتقاضاه -أي: يطلب دينًا كان له على النبي ﷺ- فجبذ ثوبه عن منكبه الأيمن، ثم قال: إنَّكم يا بني عبد المطلب أصحاب مَطَل وإنِّي بكم لعارف -أي: تتأخرون في سداد الدين، فانتهره عمر (رضي الله عنه)، فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر! أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج، أن تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، انطلق يا عمر أوفه حقه، أما أنه قد بقي له من أجله ثلاث -أي: بقي ثلاثة أيام على وقت الأداء- فزده ثلاثين صاعًا لترويعك له»[2].

ويشهد لهذا الثبات الانفعالي -أيضًا- أن أعداءه ﷺ لم يؤثروا عليه سقطة واحدةً في موقف من مواقفه معهم أو مع غيرهم.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (5763)، ومسلم في صحيحه (2609). والصرعة: التي تغلب الرجال وتصرعهم.

[2] رواه الحاكم في المستدرك (2264).

الفصل الثالث (التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّر)

لا بُدّ لكل إنسانٍ متّزنٍ في أفعاله، أن يجعل لنفسه وقتًا مع نفسه؛ فإنَّ توالي المواقف يوجب الزلل في التعامل مع هذه المواقف، ومن ثمَّ يكون الاختلال في العلاقة مع النَّاس؛ فالإنسان يصيبه الفتور والملل.

والإنسان الذي يخلو بنفسه، ويراجع حساباته بين الحين والآخر، ويوقف نفسه على مواطن دائها؛ ليعالجها، هو إنسان ناجح في حياته، لا يمل الناس ولا يملوه.

والخلوة بالنفس تزكيها؛ ولذلك حضت عليها كل الديانات -وضعية كانت، أو سماوية- وأوصى بها جميع الحكماء، حتى أنَّهم أقنعوا الناس بها عن طريق الألعاب، كلعبة «اليوغا»؛ كي ينظر الإنسان إلى نفسه فيصلحها، فالمجتمع ينصلح بصلاح أفراده.

وقد كانت شخصية النبي ﷺ شخصيةً جميلةً تُحبُّ الجمال، فإن لم تجده في الأرض انتقلت بفكرها إلى السماء، وإن لم تجده في الواقع فهو محفور في هذه الشخصية التي كانت مظهر الجمال في الأكوان؛ لذلك كان يهرب بنفسه إلى مواطن الجمال، فتجده يخلو بنفسه شهرًا كاملًا كل عام؛ ليفسح المجال لعقله أن يتجول في عالم الملك والملكوت، وتراه دائم التفكير فيما وراء الطبيعة، وإن شئت قلت: في خالق الطبيعة، وكأنّ هذا العالمَ المحسوس لا

يشبع غريزة فكره، ولا يملأ فؤاده عظمةً، هذا الكون الفسيح الذي حيّر البشر في فكِّ ألغازه لم يجد لنفسه مكانًا رحبًا في قلب النبي ﷺ وعقله.

ولك أن تتأمّل هذا الحديث الجليل الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ أَتَى بَيْتَ عائشة (رضي الله عنها)، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهَا، وجَاءَ عَلِيٌّ، فَذَكَرَتْ له ذلكَ، فَذَكَرَهُ للنَّبيِّ ﷺ، قالَ: إنِّي رَأَيْتُ علَى بَابِهَا سِتْرًا مَوْشِيًّا، فَقالَ: ما لي ولِلدُّنْيَا؟![1]

فهو مشغولٌ بربه، والتفكر في عظمته عن الدنيا، وقلّ ما يذكر الدنيا في يومه؛ لأنّ ذلك واجب الدعوة والرسالة وحق الناس الذي فرضه الله جل جلاله على حضرته.

وكأنَّ هذا العالم المحسوس لا يشغل حيزًا من تفكير النبي ﷺ، وإنَّما هو خيطٌ رفيع يدل على ما وراءه من عظمة لا تستوعبها عقول القاصرين.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحدُ[2]

وهناك كثير من العقول حاولت أن تسبح في هذا العالم اللامشاهد، فلم تفهم من رموزه شيئًا، ونكست على رؤوسها

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (2471).

[2] تنسب الأبيات لأبي العتاهية إِسْماعِيلَ بْنِ قَاسِمٍ، وتمامها:

فَيا عَجَبًا كَيفَ يُعصى الإِلَهُ أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحريكَةٍ وَتَسكينَةٍ أَبَداً شاهِدُ

وأنكرت الحاضر قبل الغائب، وقالت: كل هذا محض خيال، وليس له من الحقيقة نصيب!

وليس بمستغرب على عقل النبي ﷺ أن يقرعَ هذه الأبواب، بل يفتحها، وأن يقتحمَ هذه العوالم بل يتجوَّل فيها، فقد دخلها بجسده، فكيف لا يدخلها بعقله؟!

وإنَّما الغريب حقًّا أن يكون الجسد أرضيًا، والعقل سماويًّا!

ألا يقيد الجسد العقل، ولا يجذب العقل الجسد!

أن يتعايش على الأرض وأن يعيش في السماء!

ألا يدلك على عمق تفكير النبي ﷺ مع اتزان أفعاله أنّه حيَّر أعداءه في تحليل شخصيته؟! فتارةً يرمونه بالسحر، وتارة بالجنون، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر!

كل ذلك لأنهم رأوا شخصيةً غير عادية في محاسن الصفات، وردود الأفعال، شخصية مثالية بكل المقاييس البشرية، ولكنهم جهلوا مصدر المثالية فاحتاروا في تحديده ما بين السحر الذي يغش الأعين في الظاهر وهو في الحقيقة محض سراب!

وبين الكهانة التي تتنبأ بالمستقبل فتعدُّ له العدةَ ولا تنتظر هجوم الموقف وفجأتها!

وبين الشّعر الذي يجعل من الصعاليك ملوكًا، ومن الملوك سوقةً وعبيدًا!

وبين الجنون الذي يجعل صاحبه في قفص اتهام «اللامقصود»، حتى وإن كان مثاليًا وقت إفاقته!

رغم هذه الاتهامات فقد هزمهم الثبات الانفعالي لهذه الشخصية المثالية، وانضم كثير منهم لصفوف محبيه.

ولما عاملوه عن قرب لم يجدوه متكلفًا في صفاته يظهر خلاف ما يبطن، وإنِّما وجدوا أنفسهم أمام شخصية توقفهم أمام أنفسهم وتحاكمهم إلى عقولهم.

فلم يكن النبي ﷺ يمنحهم أجوبة سؤالاتهم بمجرد طرحها، وإنَّما يُفسح المجال لعقولهم لتبحث عن الجواب حتى وإن طرحوا السؤال مثنى وثلاث ورباع.

وأبعد من ذلك أنَّ ﷺ كان يغضب حينما يرى قصور فهم من يتأتَّى منه الفهم، كما قال الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني -رحمه الله- عند شرحه لحديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) الذي جاء فيه: «كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إذَا أمَرَهُمْ، أمَرَهُمْ مِنَ الأعْمَالِ بما يُطِيقُونَ، قالوا: إنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ قدْ غَفَرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ في وجْهِهِ، ثُمَّ يقولُ: إنَّ أتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللَّهِ أنَا».[1]

فقد غضب؛ لأنه رأى قصور فهمهم عن التفرقة بين القرب من الله، وبين كثرة الأعمال، مع علمه بشدة ذكائهم وقوة ملاحظتهم.

وكان النبي ﷺ دائمًا ما يصقل عقول أصحابه ويحركها بكثرة الأسئلة التي كان يلقيها عليهم والتي تحتاج إلى مؤلَّف مستقل، إن لم يكن حدثَ بالفعل.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (20) عن عائشة (رضي الله عنها).

وجدير بالإشارة أن عمق تفكير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقوة ملاحظته، وكثرة تأمله، لم يكن بسبب ما يتعرض له من مواقف وحوادث، وإنَّما كان تفكيرًا مستقلًا، وتأملًا نابعًا من صفاء نفس، وفرار من زخم الحياة، ومن الدخول فيما لا طائل من وراءه.

كان تفكيرًا نابعًا من حب للمعرفة، وشغف بحل غوامض الكون المحيط به، فلم يكن عقله ليرضى عن لحظة تمر عليه دون أن يزداد فيها علمًا، ويحل فيها مشكلًا، أو لغزًا غامضًا، وعلمنا ذلك عند قراءته أواخر آل عمران فقال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

يقول المستشرق الكندي الدكتور (زويمر 1813-1900م) -وهو معروف بعدائه للإسلام- في كتابه (الشرق وعاداته): «إنّ محمدًا كان ولا شك من أعظم القادة المسلمين الدينين، ويصدق عليه القول أيضًا بأنّه كان مصلحًا قديرًا، وبليغًا فصيحًا، وجريئًا مغوارًا، ومفكرًا عظيمًا، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي جاء به، وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء».

والحق ما شهدت به الأعداء.

الفصل الرابع (سُرْعَةُ البَدِيهَة)

إنّ سرعة البديهة دليل على قدرة صاحبها على أن يكون مثاليًّا في الخير، وداهية في الشر، وكونه يجنح إلى الخيرية ويُعمِل عقله فيها، فهو أكبر دليل على سلامة نفسه من أدواء النفوس والقلوب.

فسرعة البديهة نوع من الذكاء الذي لم يستطع صاحبه أن يسيطر عليه، فيعرفه مجالسه بالذكاء بمجرد الحديث معه، أو رؤية حركاته وتصرفاته. وقد عزمت على تعقيب فصل (التأمل والتفكر) بفصل (سرعة البديهة) حتى لا يظنّ أحدٌ أنّ شخصية النبي ﷺ كانت شخصيةً بليدةً لا تستطيع التعامل مع المواقف العاجلة، بل تحتاج إلى وقتٍ للتخطيط والتدبير!

فأحببتُ أن أبيّن أنَّ سيدنا النبي ﷺ كان ذا قدراتٍ فائقة، ومهاراتٍ عالية، ولكنه كان يقدر لكل شيء قدره، وكما قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ
وقد يفوت بعضَ الناس أمرهمُ مع التأنّي وطان الفضل لو عجلوا

فكان يتعامل مع المواقف التي تحتاج إلى تعاملٍ عاجل، ويُؤخّر المواقف التي تحتمل الانتظار وتطلبه.

وصاحب البديهة السريعة غالبًا ما يكون إنسانًا صادقًا مع نفسه ومع الآخرين، لذلك يستطيع الخروج من المواقف والمآزق بسهولة ويسر.

ولا أدلّ على ذلك من ردوده ﷺ على الأسئلة التي تُوجه إليه في التوِّ واللحظة، بل وتكون ردودًا مفحمةً تقنع السائل وتبهته.

وإليك هذا الحوار القصير، والنقاش الهادئ، بين نبي كلامه من المسلمات، وبين رجل من أتباعه في إحدى القضايا الحياتية.

نقاش يعتمد على الموضوعية، ويُذيب الفوارق الاجتماعية!

فالنبي ﷺ يخبرنا بقضية دينية تمس العقيدة، ولها جانبٌ طبيٌّ، والصحابي يراجعه في هذا الجانب الطبي بما يقره الحس والمشاهدة.

يقول النبي ﷺ: «لا عَدْوى ولا طِيَرةَ»[1].

أي: لا ينتقل المرض من شخصٍ لآخر إلا بإذن الله، ولو لم يقدر الله ذلك فلن ينتقل المرض ولو بات الصحيح والمريض على فراشٍ واحد!

وأنَّ قضية العدوى هي صورة خبأ الله فيها قدرته على العباد.

ويفكر الصحابي في هذا الخبر، وهذه القضية التي تحتمل الصدق والكذب لذاتها، ولا تحتمل إلا الصدق من حيث هي كلام نبيّ كلامه وحي من عند الله، فتحبسه نبوة النبي ﷺ عن الكلام والمناقشة.

وتدفعه إنسانية النبي ﷺ إلى طرح السؤال وفتح باب المناقشة، فيقول مستفهمًا: يا رسول الله! ما لنا نرى الجمل الأجرب يدخل على الإبل الصحاح فيجربها كلها؟!

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (5717) عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

نرى الجمل المريض بالجرب، يدخل على الجمال الصحيحة السليمة، فلا تمر سوى ليال إلا وتصاب جميعها بالجرب! فكيف لا نقول بالعدوى؟!

فيرد عليه النبي ﷺ بسؤال تقريري لا يُبقي في صدره شيئًا ولا يذر، فيقول له: فمن أعدى الأول؟!

أي: من الذي أصاب الجمل الأول الذي دخل على الجمال بالجرب؟! أهي العدوى أيضًا؟! أم ذلك قدر الله له؟! وإذا كانت العدوى فمن الذي أعدى من أعداه؟! وهكذا...

فلا بدّ أن يصل الأمر إلى جملٍ أصيب بالجرب بدون عدوى ولكن بمحض إرادة الله وقدرته التي ظهرت فيه ولم تختبئ في العدوى.

فالمقصود من كلام النبي ﷺ أنّ الأمور كلها تجري بمقادير، وأنَّ السر في الظاهر (جل جلاله) لا في المظاهر.

وهناك -أيضًا- إجابات للنبي ﷺ على أسئلة الصحابة أصبحت حكمة ترددها الألسن، وتعيها أذن واعية.

فيسأله أحدهم الوصية، فيقول: يا رسول الله! أوصني.

فقال له: «لا تغضَبْ». وكررها عليه أكثر من مرة.[1]

فانظر إلى هذه الوصية الموجزة التي تعتبر من جوامع الكلم، والتي لو تمسك الناس بها لكنا في غنى عن كثير من المشاكل التي نسمع عنها، بل ونعيشها بين الحين والآخر.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (6116) عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

ومن الذكاء الشديد، والسرعة الفائقة للبديهة، أن توجِد الحل البديل في نفس اللحظة التي فشل فيها الحل التقليدي، وأن تصل إلى مقصودك بأكثر من طريق مشروعة.

وفي القصة الآتية الخبر اليقين، الذي يغنيك عن البحث والتفتيش.

وبدايتها من حيث وصول الجيش القرشي إلى منطقة (بدر) التي استقر فيها الجيش الإسلامي...

وكان من عادة الجيوش قبل وصولها إلى ساحة المعركة أن يرسلوا جواسيسهم لينقلوا لهم طبيعة المكان وتضاريسه، وما استطاعوا أن يحصلوا عليه من معلومات عن العدو، وكانوا يشترطون في العيون (الجواسيس) أن يكونوا أذكياء يحسنون التصرف، والتعامل مع المواقف، والتعمية عن أنفسهم، وعن جيشهم إن اصطادتهم شباك العدو.

وصلت عيون قريشٍ إلى معسكر المسلمين، وكانت عبارة عن (رجلين)، ومن سوء حظهما أنَّهما وقعا في الأسر؛ بسبب يقظة الجيش الإسلامي، وجيء بهما إلى رسول الله ﷺ ودار بينهما حوارٌ قصير مفاده أن سألهم رسول الله ﷺ: كم عدد القوم؟

فقالا: لا نعرف!

وهذا يدل على أنَّهما كانا مخلصين لقومهما، يعتقدان فيما هم عليه أشدّ الاعتقاد، وحينئذٍ فإنَّ التعذيب في الحصول على المعلومات لن يأتي بجديد! فوجب اصطيادهما بالحِيَل.

فقال لهما النبي ﷺ: كم ينحرون في اليوم؟ أي: كم يذبحون كل يوم من الإبل كي يأكلوا؟

فقالا: تسعة في يوم، وعشرة في يوم!

أي: يأكلون تسعًا من الإبل في يوم، ويأكلون عشرًا من الإبل في يوم آخر.

فنظر النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال لهم: القوم من التسعمائة إلى الألف. أي: عددهم.

فاستطاع النبي ﷺ أن يحصلَ على مقصوده بطريق غير مباشر بعد فشل الطريق المباشر مباشرةً، وعرف عددهم بذكائه لا بقوته وقدرته على هذين الرجلين وتضييقه عليهما.

وأكثر من هذا وذاك فنّ الخروج من المآزق بلا كذب ولا خداع!

ففي هذه المعركة نفسها خرج النبي ﷺ بنفسه مع سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه)؛ ليستطلعا خبر الجيش القرشي!

فمرّا برجلٍ قد أحنى الدهرُ ظهره، وأسقط حاجبيه على عينيه، وله من الخبرة ما ليست لكثير من الإنس والجنّ.

فسألاه عن خبر قريش: أمرّت به؟ أم سمع عن قدوم القرشيين شيئًا؟

فأدلى الرجل لهما بدلوه، ثم جاء دوره ليقف موقف السائل، فقال لهما: ممن القوم؟! والجواب إما بالحقيقة -أي: يخبران عن أنفسهما- أو بخلافها -أي: يكذبان- وأحلى الأمرين مر! فالذي دلَّهما من السهل أن يدل عليهما!

أضف إلى ذلك أنّ النبي ﷺ لا يمكن أن يكذب!

فقال له النبي ﷺ: نحن من ماء.

يقصد ماء الرجل وماء المرأة اللذَين يتكون منهما الإنسان.

فأخذ الرجل يفكر: ماء العراق أم ماء ماذا؟

فالرجل فهم أنّ المقصود من الماء هنا هو اسم قبيلة من القبائل العربية!

والسؤال هنا:

هل من الممكن أن يملك أحد هذا السلاح الفتاك -وهو سرعة البديهة وفرط الذكاء ودقة التدبير- ويظل مدة عمره لا يؤذي أحدًا ولا يفكر في إيذاء أحد؟!

وهذا السؤال ينقلنا للحديث عن زر الأمان لهذا السلاح، وعن الصفة التي تضمن صحة الاستعمال، ألا وهي «السلام النفسي والخارجي».

الفصل الخامس (السَّلامُ النَّفْسِيُّ والخَارِجِيّ)

لم يكن النبي ﷺ في صراعٍ مع نفسه ولا مع غيره..

ولم يكن من هؤلاء الذين أشغلتهم أنفسهم عن التعامل مع غيرهم، ولا من أولئك الذين شُغلوا بالناس عن إصلاح أنفسهم!

كان ذا نفسٍ آمنة مطمئنةٍ ويكأنّه عقد معها اتفاق سلام!

واستقرار النفس وهدوئها له أثر خارجي يظهر في التعامل مع المواقف المختلفة، وقد تكلمنا عن ذلك لما تعرضنا لصفة (الثبات الانفعالي).

والذي نريد أن نعرفه في هذا الفصل هو طبيعة النبي ﷺ من حيث السلمية والعدائية من خلال أفعاله وردود أفعاله في المواقف المختلفة.

كأي مسلمٍ لا أستطيع الطعن في هذه الشخصية التي أعتقد شرفها وألقى الله على ذلك!

ولا يمكنني أن أصفها إلا بالكمال في جميع الصفات التي يُحمد عليها صاحبها.

ولكن يمكنني في هذا الفصل الشائك أن أسرد الأحداث والمواقف بتجردٍ شديد، وأتخلى فيه عن توجيه القارئ الكريم إلى رأيي.

وأترك ساحة الحكم بكامل مساحتها للقارئ الكريم.

إنَّ الشخصية العدائية هي الشخصية التي لا تكتفي بدفع الضر عن نفسها، ولكن تتعداه إلى إذلال الخصم، والتشفي منه، والتنكيل به، هي الشخصية التي لا يرضيها إلا سجود الناس تحت قدميها، بل وتأبى عليهم أن يرفعوا رؤوسهم من هذا السجود!

وهذه الشخصية إن لم تستطع فعل ذلك، فرائحة التعالي تفوح منها، وشرار العدائية ينطلق من عيونها كالسهام المسمومة.

والشخصية المسالمة: هي الشخصية التي يسلم الناس من شر تفكيرها، ومن حر تدبيرها، هي الشخصية التي تَجبُر الناس ولو بكسرها، وتعطي الناس ولو بفقدها!

الشخصية المسالمة هي التي تُبقي على سلمية المجتمع من حولها، ولو على حساب نفسها!

وبإمكانك أيها القارئ الكريم أن تعرف سلمية الشخصية المحمدية من عدمها من خلال عدم التفات النبي ﷺ لمن يشتمه ويسبه وعدم رده عليهم!

ولم يكن ذلك عن عجز ولا عن ضعف، وكيف يكون ذلك وهو ابن سيد القرشيين وأكثرهم عقيلة ومعشرًا؟!

وإنما ذلك لإيثار السلامة على الندامة، وكأنَّ قول الإمام الشافعي قيل في حضرته[1]:

يخاطبني السفيه بكل قبحٍ ... فأكره أن أكون له مجيبًا

يزيد سفاهةً فأزيد حلمًا ... كعودٍ زاده الإحراق طيبًا

[1] الأبيات في ديوان الإمام الشافعي 11.

وإليك أيها القارئ القاضي هذه القصة في هذا الفصل من الكتاب، والتي تكشف لك عن طوية الشخصية المحمدية، ومدى سلميتها...

تبدأ القصة من حيث تنتهي معركة بدر بانتصار الجيش الإسلامي انتصارًا عظيمًا على صناديد قريش، حيث قُتل من القرشيين سبعون رجلًا، وأُسر منهم سبعون آخرون!

وأصبح المسلمون يتساءلون: ما العمل في هؤلاء الأسرى؟

أتُقبل منهم الفدية ويُطلق سراحهم؟! ولكن كيف ذلك وهم بالأمس القريب أخرجوهم من أرضهم وديارهم وأموالهم، وفعلوا بهم الأفاعيل؟!

أم تمضي فيهم عادة معارك ذلك الزمان فيتم توزيعهم على المسلمين كعبيد وخدم؟!

ولكن كيف يستعبد الرجل أخاه وأباه وعمه؟!

أم يعاملون بنقيض مقصودهم فيُقتلون كما جاءوا لقتل المسلمين؟!

قبل اختيار واحد من هذه الخيارات المطروحة لم يكن الأسرى يُعاملون معاملة مهينة غير أنّهم كانوا مقيدين بالحبال خشية هروبهم! حتى هذه رقَّ لها قلب النبي ﷺ فخفف الوثاق عن بعضهم!

ولما جاء وقت الفصل في أمر هؤلاء الأسرى، والحكم عليهم بواحد من تلك الأحكام الثلاثة، جمع النبي ﷺ أهل الشورى؛ ليستشيرهم في هذا الأمر، فافترقوا على فرقتين: فرقة يتزعمها

سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وفرقة يتزعمها سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنهما).

فأما الفرقة التي يتزعمها سيدنا عمر (رضي الله عنه) فرأت أنّ الحل الأصوب هو قتل هؤلاء الأسرى جميعًا جزاءً وفاقًا على قتل الضعفاء والأبرياء في مكة، وعبرة لمن تسول له نفسه الدخول في مهاترات، وخوض المعارك مع المسلمين، وهؤلاء شعارهم «النَّفسُ بالنفسِ والعينُ بالعينِ والبادئُ أظلم».

وأما الفرقة التي يتزعمها سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فرأت أنّ الحل الأصوب هو قبول الفدية منهم، وإطلاق سراحهم أسلموا أم لم يسلموا، فإنهم إن بعدوا فإنهم الأبناء والآباء والأعمام والأخوال.

بلدي وإن جارت عليّ عزيزةٌ قومي وإن ضنّوا عليَّ كرامُ

وهؤلاء شعارهم:

ازرع جميلًا ولو في غير موضعه فلن يضيع جميلٌ أينما زُرعا
إنَّ الجميل وإن طال الزمان بهِ فلن يجنيه غيرُ الذي زرعا[1]

فمال النبي ﷺ إلى الحزب البكري، وأخذ برأي سيدنا أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وقبل منهم الفدية، وأطلق سراحهم، وكان هذا هو رأي حضرته من البداية.

هذه النفس المحمدية المسالمة كانت تكره الحرب، وتحب السلم وتجنح إليه، أليس صاحبها هو القائل:

---

[1] وردت الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد 343/3 (2722).

«لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العَدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ»؟![1]

أليس صاحبها هو القائل: «المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ»؟![2]

لم يسلم منه الناس فقط، بل سلم منه الخلق جميعًا، فكان ينهى عن قطع الأشجار، وإهلاك الحرث والنسل، وإحراق النمل بالنار!

وأما عن السلام الخارجي ففي طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَلِ[3]، فإنه ﷺ ما بدأ أحدًا بالعداء، ولا بدأ قبيلة بالحرب، وكانت تحيته «السلام عليكم»، وكان يقول: «أَفشوا السَّلامَ بينَكُم»[4]، وكان إذا بعث رسالةً إلى الملوك والرؤساء يبدأها بقوله: «سلم أنت»، ولا يدخل حربًا إلا طلب السلام قبلها، ولا يدخل بلدًا إلا سالم أهلها، كما عقد سلامًا مع يهود بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، ومع أهل مكة يوم صلح الحديبية.

ولم يكن ذلك بعد نبوته فحسب، وإنّما كان الجنوح إلى السلم سجية في حضرته، فقد حضر في شبابه (حلف الفضول) بعد (حرب الفجار) والتي كانت قريشٌ طرفًا فيها، وهذا الحلف كان بمثابة عقد صلح بين الأطراف المتنازعة، وكان من بنوده أن اتفقت القبائل الحاضرة ألا يجدوا مظلومًا إلا نصروه، ولا ظالمًا إلا أخذوا

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (7237)، ومسلم في صحيحه (1742).

[2] رواه البخاري في صحيحه (6484)، ومسلم في صحيحه (41).

[3] من بيت للمتنبي، وتمامه:

خُذ ما تَراهُ وَدَع شَيئًا سَمِعتَ بِهِ ... فِي طَلعَةِ الشَمسِ ما يُغنيكَ عَن زُحَلِ

[4] رواه البخاري في الأدب المفرد (980)، (989)، ومسلم في صحيحه (54).

على يديه، وفي ذلك الحلف يقول النبي ﷺ: «لو دعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبت».

وكان يخبر أنَّ مثل هذا العقد، وهذا الاتفاق أحب إليه من حُمُر النَّعَم، وهي أجود أنواع الإبل، والتي كانت مقياسًا للثراء في هذا الوقت.

وشخصية بهذه العقلية وهذا الذكاء وهذا التحكم في الانفعالات، وهذه السلمية ألا تستحق أن تكون قدوة لمن ابتغى المثالية؟!

يقول الكاتب الإنكليزي (إدوارد لين) في كتابه (أخلاق وعادات المصريين): «إنَّ محمدًا كان يتصف بكثيرٍ من الخصال الحميدة، كاللطف والشجاعة، ومكارم الأخلاق، حتى أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته بصبرٍ وَجَلَدٍ عظيمين؟! ومع ذلك فقد بلغ من نبله أنّه لم يكن يسحب يده من يد من يصافحه حتى ولو كان طفلًا، وأنّه لم يمرّ يومًا من الأيام بجماعة دون أن يقرئهم السلام، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وقد كان محمد غيورًا متحمسًا، وكان لا يتنكر للحق ويحارب الباطل، وكان رسولًا من السماء، وكان يريد أن يؤدي رسالته على أكمل وجه، كما أنّه لم ينس يومًا من الأيام الغرض الذي بُعث لأجله، ودائمًا كان يعمل له ويتحمل في سبيله جميع أنواع البلايا، حتى انتهى إلى إتمام ما يريد».

الفصل السادس (رَدُّ الشُّبُهَاتِ عَنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ)

قديمًا قالوا[1]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يُراق على جوانبه الدمُ

فما من عظيمٍ إلا وتكلم الناس فيه! وأنا لن أُريق دماءً دفاعًا عن هذا الجناب الكريم، وعن هذا الشرف الذي لا يدانيه شرف، ولكنني سأريق المحابر، إحقاقًا للحق لا تحيزًا لمن أُحب، والقارئ بصير.

إنَّ الإنسان الذكي، نافذ البصيرة، سريع الإدراك والبديهة، واسع المدارك قد تقصر عقول الكثيرين عن فهم أفعاله، واستنباط الحكمة منها، وليس ذلك قصورًا حقيقيًا منهم، وإنما سبق فعلي منه لهم.

والنبي ﷺ قد شهد له الجميع: العدو قبل الصديق بالذكاء، والفطانة، والصدق، والأمانة، والعدل، والرحمة، والحلم...

ولكن بعض الباحثين في سيرة حضرته قد وقفوا على بعض المواقف التي تعارض -في وجهة نظرهم- اتصاف حضرته بهذه الصفات، فمنهم من لم يستطع الخروج من هذا المأزق إلا بنفي حدوث هذه المواقف -رغم ثبوتها- غيرة منه على هذه الشخصية

---

[1] البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها:

لِهَوى النُفوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعلَمُ عَرَضًا نَظَرتُ وَخِلتُ أَنّي أَسلَمُ

المثالية وهو معذور في فعله -إن كان يملك أدوات البحث، مأجور إن شاء الله من ربه- إن كان مخلص النية.

ومنهم من وجد في هذه المواقف ضالته فراح ينشرها هنا وهناك، مبتورةً عن سياقها مرة، وكاملة مرة ولكنه يتبعها بتعليقاته التي تذهب بالقارئ كل مذهب!

وعلى كلٍ فإنني -إن شاء الله تعالى- سأناقش نقاشًا مجردًا عن التحزب والعصبية والتعرض لأي شخص كائنًا من كان، فالله أعلم بالنوايا.

ومن خلال قراءتي لبعض هذه المواقف علمت أنَّ منشأ الخطأ في فهمها هو قراءتها مجردةً عن الزمان، والمكان، والأشخاص، والسابق، واللاحق لها، وقراءة الفعل على أنَّه ردة الفعل!

وهذا البتر من السياق قد يكون متعمدًا؛ ولا أظنّ أنّ مسلمًا يفعل ذلك، وقد يكون قصور نظر في السيرة النبوية!

ولذلك فإنني سأكتفي ببعض الأمثلة وبيانها بيانًا علميًا حتى يستطيع القارئ الكريم أن يفهم عن النبي ﷺ أي موقفٍ يصدر عن حضرته ظنّ الناس مخالفته لما كان عليه طيلة حياته من خصالٍ عليَّة، وصفاتٍ سنيّة.

ومن هذه المواقف التي أسيء فهمُها: موقفه من قافلة قريش التجارية العائدة من الشام، والذي كان سببًا في غزوة بدر الكبرى.

فقد سمع النبي ﷺ أنَّ تجارة كبيرة للقرشيين راجعة من الشام، وستمر بالقرب من المدينة، ولا حراسة عليها!

فخرج النبي ﷺ ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار يبلغ عددهم أربعة عشر وثلاثمائة (314) رجلًا بقصد الاستيلاء على هذه الإبل وما عليها والعودة بها إلى المدينة.

ولقد ظنَّ بعضهم أنَّ هذا الموقف موقف عدواني، وهو ترويع للآمنين، وسرقة لأموال الغائبين! وقطع صريح للطريق!

وهذا كلام من نظر إلى هذا الحادث نظرة مقتضبة! ولم ينظر إلى أسبابه ودوافعه.

فإنَّ النبي ﷺ والمهاجرين معه خرجوا من مكة مجبرين مُكرهين حتى لا يفتنهم المشركون عن دينهم وعقيدتهم بالتعذيب، والقتل، وغيرهما، وتركوا بيوتهم، وأرضهم، وماشيتهم، وتجارتهم، وكل ما لم يستطيعوا حمله معهم!

والسيرة تحكي لنا أنّ أُسرًا كاملةً تركت كل ما تملك في مكة وتهجرت منها عنوة!

تركوا بيوتهم ليحلوا ضيوفًا على غيرهم!

وتركوا تجارتهم ليعملوا أُجراء عند غيرهم!

كلُ هذه الأموال والثروات قد استولى عليها أهلُ مكة وضموها إلى متاعهم، وأصحابها يكتوون بنار الحرج من مُضَيفيهم.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى للنبي ﷺ وأصحابه لمحاولة رد بعض هذه الثروات المنهوبة، ولكن النبي ﷺ قد أرسل أصحابه أكثر من مرة لاسترداد حقوقهم وأموالهم كلما مرت قافلة تجارية لقريش.

والعجيب في الأمر أنَّ في جميع هذه الإرساليات لم يكن يخرج إلا المهاجرون، ولم يخرج معهم أنصاري واحد؛ لأنَّ المهاجرين هم أصحاب الحق فقط في هذه الأموال، ولم يخرج الأنصار معهم هذه المرّة إلا لخروج النبي ﷺ بنفسه مع المهاجرين؛ خوفًا من تعرضه لحرب من قريش أو من غيرها وقد كان وحدث ذلك بالفعل.

وما لجأ النبي ﷺ إلى هذا الحل إلا لأنَّ الحلول السلمية لم تثبت فاعليتها مع القرشيين، فلم يستطع المهاجرون القرشيون أن يفلتوا بشيء من أموالهم من مكة حتى بالمفاوضات.

ولعلك قرأت قبل ذلك -أيها القارئ الكريم- موقفهم من الصحابي الجليل «صهيب بن سنان الرومي» لما أراد الخروج من مكة بماله وتجارته لحقوا به ورفضوا خروجه! فقال لهم: أرأيتم لو تركت أموالي وتجارتي لكم أتُخلوا بيني وبين ما أريد؟! قالوا: نعم، فتركها لهم وهاجر إلى المدينة، فلما علم النبي ﷺ ذلك، قال له: «رَبِحَ البَيعُ أبا يَحيى»[1].

ولكن كيف لمثل سيدنا صهيب أن يعيش ضيفًا على غيره، وقد كان معه ما يكفيه وأهله أجمعين؟!

كيف له أن يرى أولاده يبيتون جياعًا، وأولاد غيره يأكلون ما لذّ وطاب من حُرِّ ماله الذي ظلَّ يجمعه طيلة حياته؟!

---

[1] الحديث بطوله رواه الطبراني في المعجم الكبير (7308)، وأبو نعيم في حلية الأولياء 1/151-152.

كل ذلك لأنَّه خالفهم في الرأي، واختار لنفسه طريقًا غير طريقهم ولم يتعرض لهم بشيء!

واعلم أنَّ الرضا باستمرار هذا الظلم ضعف ودونية لم يقبلهما النبي ﷺ وأصحابه -وهم أصل النخوة والشجاعة والمروءة- فخرجوا لرد أموالهم، أو على الأقل إرسال رسالة لقريش يعرفونهم من خلالها مدى شجاعتهم وإصرارهم على ردِّ اعتبارهم وأخذ حقهم بأي وسيلة كانت.

ويمكن أن أُجمل القول في هذه الجملة «إنَّ هذا الموقف كان ردة فعل واجبة لفعل لا يقره عقل سليم، ولا عرف مجتمعي مستقيم»!

هذا الموقف كان رد حق، لا اغتصاب حق.

ومن المواقف التي وقف عندها بعض قراء السيرة النبوية موقفه ﷺ من عيينة بن حصن الفزاري، فعن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أنّ رجلًا استأذن على النبي ﷺ فقال: «ائْذَنُوا له، فَلَبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ، أَوْ بِئْسَ رَجُلُ العَشِيرَةِ» -والمراد بالعشيرة قبيلته-، أي: بئس هذا الرجل منها، فلما دخل عليه ألان له القول.

قالت عائشة (رضي الله عنها): فقلت: يا رَسولَ اللهِ، قُلْتَ له الذي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ له القَوْلَ؟!

قال: «يا عَائِشَةُ إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ، مَن وَدَعَهُ، أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».[1]

[1] رواه البخاري (6032)، ومسلم (2591).

فظنَّ بعض الناس أنَّ هذه غيبة ونفاق، فالنبي ﷺ ذَكَرَه بما يكره في غيبته، ولم يظهر له ذلك في حضوره! بل أظهر له العكس من لين الحديث، وبشاشة الوجه!

والفهم الخاطئ لهذا الموقف أيضًا منشؤه الاستقراء الناقص للموقف، وعدم معرفة أطراف القضية معرفة جيدة.

فعيينة بن حصن كان كبير قبيلته، وكانوا جميعًا يأتمرون بأمره، وينتهون عما نهى عنه! وأي صدام معه كان سيؤدي إلى عواقب وخيمة في المجتمع.

وكذلك فإنَّ عدم التحذير من صفاته المذمومة سيؤدي إلى الاغترار به وبصحبته للنبي ﷺ والوقوع معه في مشاكل مستقبلية، والنبي ﷺ مرشد، وزعيم أمة، ومؤسس دولة، وعدم مناصحة أمته غش لهم -وحاشاه.

ألم يخبر سيدَنا حذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين في المدينة حتى يكون على دراية بهم، ويخبر الخليفة من بعده بأمرهم إن أحدثوا حدثًا؟!

قال القاضي عياض اليحصبي المالكي:

هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبي ﷺ أن يبين حاله؛ ليعرفه الناس، ولا يغترّ به من لم يعرف حاله... وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده ما دلَّ على ضعف إيمانه، وارتدَّ مع المرتدين، وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر (رضي الله عنه) ووصف النبي ﷺ له بأنَّه بئس أخو العشيرة

من أعلام النبوة؛ لأنَّه ظهر كما وصف، وإنَّما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام.[1]

فكلام النبي ﷺ عنه قبل دخوله من باب النصيحة، ومن باب دفع توهم الجالسين أنَّ هذا الداخل من المقربين لرسول الله ﷺ، فيولوه أمرًا من أمور المسلمين يومًا ما؛ خاصة أنَّ النبي ﷺ كان يبقي أمير القوم في الجاهلية أميرًا على قومه في الإسلام، ولا ينزع عنه ملكه ورياسته، ولا ينازعه فيهما، وعلى هذا سار سيدنا أبو بكر، ومن بعده سيدنا عمر (رضي الله عنهما) في أول حكمه حتى قال: إنَّ الله أعزَّ الإسلام فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، أي: لن نولى الإمارة إلا أهلها ولو كان عبدًا حبشيًا، ولن نؤلف قلب أحد بالأموال للبقاء على الإسلام.

فأحبَّ النبي ﷺ أن يخبرهم بحاله، وأنَّه لا يصلح للتمكين له ولا حتى في قلوب الناس.

ومن الأدلة اللطيفة على ذلك أنَّ رواة الحديث قد فهموا ذلك عن النبي ﷺ فذكروا اسم هذا الرجل في كثير من الروايات صاحب هذه الواقعة على غير عادتهم! ولم يبهموه كعادتهم في سرد أغلب الأحداث، فإنهم كثيرًا ما كانوا يقولون: دخل رجل، وجاء رجل، وقال رجل، وسأل رجل، ولا يذكرون اسمه حتى لا يفضحوه بين الناس، وهذه عادة النبي ﷺ في النصيحة، فإنه كان دائمًا ما يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ويفعلون كذا وكذا.

---

[1] شرح مسلم للنووي.

أمَّا في هذه الحادثة بالذات، فإنّهم عينوه، وكأنَّهم فهموا عن النبي ﷺ أنَّه قصد التحذير منه، والتنبيه على أمره حتى لا يغتر الناس بمقابلة النبي ﷺ وتقريبه له.

أما عن عُيينة ين حصن فإنَّه لم يكن يعنيه كثيرًا قُرب النبي ﷺ منه، أو بعده عنه! حتى نقول: إنَّ الأمر سيكون مؤثرًا على العلاقة بينهما، وإنَّما دخل عُيينة بن حصن الإسلام راغبًا وطامعًا؛ لذلك كان النبي ﷺ يعطيه تأليفًا لقلبه، واستبقاء له على دينه، وللآلاف من ورائه.

فالنبي ﷺ أعطاه مائة من الإبل من غنيمة غزوة حنين؛ تأليفًا لقلبه، وتحبيبًا له في الإسلام، ولم يُعطَ أحدٌ من الغنيمة كما أُعطي هو!

وهذا أمر جعل الأنصار يجدون في أنفسهم ما يجدون من الأثرة عليهم، ولم يفهموا عن النبي ﷺ أنَّه لا يقصد عيينة بن حصن لذاته، ولكن يقصد مَن وراءه، وقد بيَّن النبي ﷺ لمن حضر منهم وقال لهم: أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟!

هذا عن سبب كلام النبي ﷺ عنه في غيبته، ودون علمه، أما عن سبب إلانة الحديث له، والبشاشة في وجهه، فذلك؛ لأنَّ عيينة أعرابي حاد الطبع، غليظ المعاملة، لو لم يعامله النبي ﷺ برفقٍ ولين -كعادته مع الجميع- فسيسمع منه ما يكره، فضلًا عن ردته عن الإسلام وفي كلا الأمرين شرّ!

ولم يكن الصحابة ليسمحوا له بالتبجح مع النبي ﷺ في الحديث وفي المعاملة عمومًا، ولم يكونوا ليسمحوا له -أيضًا- أن يكون سببًا في رجوع أي مسلمٍ عن دينه.

فالرفق به، ولين الحديث معه كان اتقاء فتن كانت من الممكن أن تحدث، وليس هذا كلامًا إنشائيًا نُحبِّر به الأوراق، فقد كاد هذا أن يحدث بالفعل في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)!

فقد دخل عليه عيينة بن حصن، وتكلم معه بطريقة لا تليق أمام جلسائه مما سيؤثر على هيبته أمام الناس بالسلب! فكاد سيدنا عمر (رضي الله عنه) أن يفتك به انتقامًا لهيبة الخلافة والخليفة، لا لهيبة عمر، لولا أنْ هدّأه أحد جلسائه -وكان ابن أخ عيينة بن حصن- وقال له: يا أمير المؤمنين! إنَّ الله (عز وجل) يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:199]، وهذا من الجاهلين.

فسكت الغضبُ عن سيدنا عمر (رضي الله عنه) وكان وقّافًا عند كتاب الله.

ومن هنا تعلم أنَّ النبي ﷺ تكلم من وراءه نصيحة للناس؛ وتبرئةً لنفسه من الظلم في قسمة الغنائم، وألان له الحديث؛ تأليفًا لقلبه؛ وحفاظًا عليه وعلى من معه من المسلمين؛ ووأدًا للفتن التي تعصف بالدول الكبرى فضلًا عن دولة حديثة الولادة، بل لا زالت تحت الإنشاء.

ومن الأحاديث التي أُساء بعض الناس فهمها وظنوها عنصرية من النبي ﷺ ! وانتصارًا لقومه، قوله «قدِّموا قريشًا ولا تَقَدَّموها»[1] رغم معاناته منهم في بداية دعوته، وعدم مسالمتهم له إلا بالقوة، فكان هناك من هو أولى منهم بالتقديم!

ولو عرف هؤلاء السبب لمالوا للنبي ﷺ قلبًا وقالبًا.

فإنَّ هذا التقديم لم يخص به النبي ﷺ قريشًا وحدها، وإنَّما كان يُقدِّم كل من قدَّمه الناس في الجاهلية ويقول: «خيارُكم في الجاهليَّةِ خيارُكم في الإسلامِ، إذا فَقِهوا»[2]، وإذا أسلم أمير أبقاه في إمارته، أو ملك أبقاه في ملكه.

وقريش كان لها ما لها في الجاهلية، وما كانت العرب لتتقدم عليها في مشهد من المشاهد في أي يوم من الأيام، أو مفخر من المفاخر، فكل العرب تدين لها بخدمتها للبيت الحرام، وجوارها له.

والإسلام ما جاء ليقلب الموازين، ولكن ليقومها، فأبقى الأمر على ما هو عليه حتى لا يتخذ بعضهم الإسلام فرصة لتصفية الحسابات، أو إذلال من قاده يومًا وراده.

فردَّ النبي ﷺ الحقَّ لأصحاب الحق، وتركهم في مكانتهم التي هم فيها، فالإسلام يسمو بالمرء ويرفع قدره في مجتمعه، ويرد

---

[1] رواه الشافعي في مسنده 278، وأحمد في فضائل الصحابة (1066)، وابن أبي عاصم في السنة (1519)، والبزار في البحر الزخار (465)، والبيهقي في شعب الإيمان (1490)، وفي معرفة السنن والآثار (217).

[2] رواه البخاري في صحيحه (3374)، (4689).

الحقوق بل يزيدها، ولا يمكن أن يجلب على أتباعه شرًا أبدًا، ولا يُشعرهم أنَّ ما كانوا عليه قبل ذلك أفضل مما هم فيه الآن.

فما فعله النبي ﷺ هو تطبيق لقاعدته في المعاملة، وليس اختصاصًا لقومه بما لا يستحقون.

ولنأخذ مثالًا رابعًا وأخيرًا على الأحاديث التي يهم بعض القرَّاء عند قراءتها، فيظنون برسول الله الظنونَ!

وهو حديثٌ رواه أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال:

«لما كان يومُ فتحِ مكةَ اختبأَ عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ عندَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ [رضي الله عنه]، فجاء به حتى أوقَفَه على النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ ﷺ بايعْ عبدَ اللهِ، فرفَعَ رأسَه، فنظَرَ إليه، ثلاثًا، كلَّ ذلك يأبَى، فبايَعَه بعدَ ثلاثٍ، ثم أقبَلَ على أصحابِه، فقال: أمَا كان فيكم رجُلٌ رشيدٌ، يقومُ إلى هذا؛ حيثُ رآني كفَفتُ يدي عن بَيعَتِه فيقتُلُه؟ فقالوا: ما ندري يا رسولَ اللهِ ما في نفسِكَ؟ ألَا أومأتَ إلينا بعينِك؟ قال: إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أنْ تكونَ له خائنةُ الأعيُنِ»[1].

من يكتفي بقراءة هذا النص تراوده أفكارٌ، وتتجاذبه ظنون في حضرة جناب من أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، وما ينبغي لناظرٍ في السنّة أن يقرأ النصوص مبتورةً عن سياقها، ولا بمعزلٍ عن زمانها ومكانها.

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (38068)، وأبو داود في سننه (2683)، والنسائي في سننه (4067)، والحاكم في المستدرك (4360).

في هذا النص نرى رسول الله ﷺ يهدر دم من جاء إليه مبايعًا ومسالمًا، وتمنى أن لو قتله أحد الصحابة قبل أن يضع يده في يده، ويعصم دمه ويؤمنه على نفسه وماله!

والذي يُحتِّم عليك التأمل والتفكير في هذا النص أنَّه خالف ما عهده الصحابة على رسول الله ﷺ مع كل من جاءه مبايعًا ومسلمًا!

إذن في القضية قضية، وفي الأمر أمر، ولا بُدّ أنَّ في الأمر سرًّا، وإذا عُرف السبب بطل العجب.

والسرّ في عبد الله بن أبي السرح نفسه، فقد اقترف إثمًا، واجترم جرمًا لا يمكن أن يُغتفر بالاعتذار والرجوع، وأعني بالمغفرة هنا: المغفرة الدنيوية بحيث ينسى الناس الأمر وكأنَّه لم يكن.

فعبد الله بن أبي السرح قد وضع يده في يد النبي ﷺ قبل هذه الحادثة! ودخل في جماعة المسلمين، وقرَّبه النبي ﷺ منه، وجعله من كُتَّاب الوحي، وظلَّ على ذلك فترةً حتى نكص على عقبيه، ورجع إلى ما كان عليه من الكفر!

رغم أنَّ هذه مشكلة كبيرة إلا أنَّها لم تكن السبب الرئيس في رغبة النبي ﷺ في الانتقام منه.

فعبد الله بن أبي السرح قد استخدم إسلامه وكتابته للوحي لحساب المشركين، وأفشى أسرار دولته، بل وأغمد خنجره في صدرها.

وادَّعى أنَّ النبي ﷺ كان يكتب القرآن من تلقاء نفسه، وادَّعى أنَّه ساعد النبيَّ ﷺ على تأليف القرآن! وأنَّه كان إذا أبدل كلمةً بكلمة

مما كان يمليه النبي ﷺ عليه لم يكن النبي ﷺ يعترض! بل كان يؤيده ويقول له: هذه أحسن!

ولم يكتف بهذا، بل راح يطعن في النبي ﷺ وأخلاقه، وأصحابه، في كل مجلسٍ يجلس فيه.

فكم من مشركٍ أراد دخول الإسلام صده عن إسلامه كلام ابن أبي السرح؟!

ثم ماذا لو أسلم مرةً أخرى؟! من يضمن ألا يفعل ما فعله أول مرة؟

بل إنَّ نسبة رجوعه عن الإسلام هذه المرَّة أكبر من نسبة رجوعه في المرّة الأولى، فإنَّه في المرة الأولى أسلم مختارًا، وفي المرَّة الثانية أسلم ليأمن من المحاكمة؛ لأنه يعلم أنَّ الإسلام يجبّ ما قبله.

هذه الجرائم، وهذه الخيانة، جعلته حقيقًا بإهدار دمه، فهو الجزاء العادل الذي رآه العقلاء في كل زمان، لكل من قام بخيانة دولته، وتحالف مع أعدائها، وهو ما يسمى في العصر الحديث بـ(الخيانة العظمى)، وعقوبتها الإعدام في كل القوانين الدولية.

وعبد الله بن أبي السرح وقف أمام النبي ﷺ وهو مهدر الدم يطلب الأمان لنفسه، فتوقف النبي ﷺ في إعطائه الأمان، وإدخاله في جماعة المسلمين مرة أخرى، لعل واحدًا من الصحابة يقوم بتنفيذ حكم الإعدام الصادر في حقه، إلا أنَّ ذلك لم يحدث! ورسول الله ﷺ يعرف أنَّ ذلك لن يحدث؛ لأنَّه يعرف أصحابه،

وأنَّهم ما كان لهم أن يتقدموا بفعل بين يديه دون أن يأمر به، ولكنه أراد أن يسنَّ قانونًا لدولته، أو يقرَّ قانونًا عملت به كثير من الدول المحيطة به، ألا وهو «الخيانة العظمى ليس لها جزاءٌ إلا القتل».

ولكنَّ العفو الذي صدر في حقِّ عبد الله بن أبي السرح هو عفو نبوي، وليس عفوًا ملكيًا؛ لأنَّه لم يأت طالبًا الأمان فقط، وإنَّما جاء يريد الإسلام أيضًا، وباب التوبة مفتوح لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها، فقبله النبي ﷺ وأدخله في صفوف المسلمين، ولكن بعد أن أقرّ قانونًا يحول بين عبد الله بن أبي السرح وبين ما فعله أول مرة طيلة حياته.

وفي هذه الأمثلة الأربعة الكفاية لمن أراد أن يعرف موطن الداء، وسر الفهم الخاطئ لبعض أفعال النبي ﷺ، وملخص إشكالات هذه الأحاديث وغيرها هو: «قراءةٌ خاطئةٌ، من عقلٍ قاصرٍ».

يقول العلامة الفرنسي (ساديو لويس): «لم يكن محمد نبي العرب بالرجل البشير للعرب فحسب، بل للعالم لو أنصفه النَّاس؛ لأنَّه لم يأت بدين خاص بالعرب، وأنَّ تعاليمه الجديرة بالتقدير والإعجاب، تدل على أنّه عظيم في صفاته، عظيم في أخلاقه، وما أحوجنا إلى رجال للعالم أمثال محمد نبي المسلمين».

الباب الثاني
(العَلاَقَاتُ الاجْتِمَاعِيَّة)

الفصل الأول (مِحْوَرُ العَلاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وقَاعِدَتُهَا)

إذا نظرت إلى أيّ إنسانٍ محبوبٍ بين الناس، وناجحٍ في علاقاته معهم تجده إنسانًا سخيًا، يعطي ولا ينتظر الأخذ، ولا أقصد بالعطاء هنا عطاء الأموال والأغراض، ولكن عطاء كل ما يضنّ به الإنسان على غيره: أن تحب من يكرهك، وأن تصل من يقطعك، وأن تعطي من يحرمك...

هذه القاعدة أقرَّها النبي ﷺ في مواقف متعددة، وبعباراتٍ شتَّى كلها جمال ورقة:

أقرَّها حينما قال: «ازهدْ فيما في أيدِي الناسِ يحبكَ الناسُ»[1]، وأقرَّها حينما قال: «تهادُوا تحابُّوا وتذهبُ الشَّحناءُ»[2]، وأقرَّها حينما قال: «ليس الواصلُ بالمكافِئِ ولكنَّ الواصِلَ الذي إذا انقطعتْ رحمُه وصلَها»[3]. أي: من يزور أقاربه ولا يزورونه أعظم أجرًا ممن يزورهم ويزورونه.

---

[1] روى ابن ماجه في سننه (4102)، والطبراني في المعجم الكبير (5972)، والحاكم في المستدرك (7873) عن سهل بن سعد الساعدي، قال: «جاءَ رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال يا رسولَ اللَّهِ دُلَّني على عملٍ إذا أنا عمِلتُه أحبَّني اللَّهُ وأحبَّني النَّاسُ قال ازهد في الدُّنيا يحبُّكَ اللَّهُ وازهد فيما عندَ النَّاسِ يحبُّكَ النَّاسُ».

[2] رواه الإمام مالك في الموطإ من رواية أبي مصعب الزهري (1896)، عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني.

[3] رواه البخاري في صحيحه (5645)، وفي الأدب المفرد (68)، وأبو داود في سننه (1697)، والترمذي في سننه (1908).

وأقرّها كذلك لما أتاه سائل يسأله فأعطاه غنمًا كثيرة، فرجع الرجل إلى قومه وقال لهم: إنَّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وقال غيره: «جئتكم من عند خير النَّاس».

وأقرّها أيضًا لما أتاه سائل، ولم يمكن معه ما يعطيه له، فاعتذر له النبي ﷺ له اعتذارًا رقيقًا ثم قال له: «ابتَعْ عَلَيَّ، فإذا جاءني شَيءٌ قَضَيتُه»[1].

ابتع عليَّ فإذا جاءنا شيء قضيناه.

أي: اذهب إلى السوق واشتر ما تشاء، وأنا سأدفع ثمنه، فقال له سيدنا عمر: يا رسول الله! ما كلفك الله فوق ما تطيق! فسكت النبي ﷺ حتى عُرِف الغضب في وجهه، فقال له سيدنا بلال (رضي الله عنه): يا رَسولَ الله! أنفِقْ ولا تخشَ مِن ذي العَرْشِ إقلالًا، فتهلل وجه النبي ﷺ وقالَ: بذلِكَ أُمِرْت.

وكان يقول لأصحابه: «ما يَكُنْ عِندِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»[2].

وما دام الإنسان معطاءً فإنَّه سينال محبة النّاس وودَّهم.

---

[1] رواه الترمذي في الشمائل (355)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (390) عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وسبق تخريج الحديث وإيراده.

[2] روى البخاري في صحيحه (1400)، ومسلم في صحيحه (1053) عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه): أنَّ نَاسًا مِنَ الأنْصَارِ سَأَلُوا رَسولَ اللهِ ﷺ، فأعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، حتَّى إذَا نَفِدَ ما عِنْدَهُ قالَ: ما يَكُنْ عِندِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَن يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِن عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ.

وقد دخل رجل البصرة، فسأل عن سيدها، فقالوا له: الحسن بن أبي الحسن البصري، فقال: بم سادكم؟ فقالوا بغناه عن الناس وافتقارهم إليه.

وعلى البذل والعطاء الحسّي والمعنوي جُبلت شخصية النبي محمد ﷺ في جميع أطوارها الخفيّة والجليّة، مما أنتج نجاحًا باهرًا في جميع علاقاته الاجتماعية، حتى مع أعدائه الذين لم يتركوا طريقًا لأذيته إلا سلكوها.

كان يحب النّاس ولا ينتظر حبهم، ويعطيهم ولا ينتظر عطاءهم، ويرجو لهم الخير ولو لم يكن له فيه نصيب، وهكذا ربَّى أصحابه وأهل بيته.

فقد رُوي أنَّ رجلًا شتم سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) فقال له سيدنا عبد الله: أتشتمني وفيَّ ثلاث -أي: ثلاث خصال كفيلة أن تجعلني من المحسنين الصالحين في المجتمع الذين تحرم أذيتهم وسبهم!

ثمّ قال: إنّني لأسمع بالغيث ينزل في بلاد المسلمين فأفرح لهم وليس لي فيه زرع ولا ماشية، وأسمع بالقاضي العادل في بلد من بلاد المسلمين فأفرح بذلك ولعلي لا أحتكم إليه أبدًا، وأقرأ الآية من كتاب الله فأفهم منها ما شاء الله أن أفهم، فأتمنّى أن لو فهم كل المسلمين من الآية ما فهمته منها.

والآن فلنقترب من سيدنا النبي ﷺ لنرى كيف كانت علاقاته مع الناس المحيطة بحضرته.

الفصل الثاني (العَلاقَةُ مَعَ الأَبْنَاءِ وَالأَحْفَاد)

لا أريد -في هذا الفصل- أن أزايد على هذه المحبة الفطرية التي وضعها الله (جل جلاله) في قلوب الآباء لأبنائهم، ولا يمكنني أن أدَّعي محبةً زائدة من رسول الله ﷺ لأبنائه على محبة باقي البشر لأبنائهم. ولكن يمكنني أن أصف هذه العلاقة بأنها علاقة (لا تُطغي ولا تُلهي)، علاقة توازن بين الحب وحسن التربية، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يلهي أحدهما عن الآخر.

وعلاقة توازن بين الأطراف جميعًا، فلا يطغى طرف على صاحبه حتى وإن كانت عوامل البيئة تؤيد هذا الطغيان وتدعمه، وذلك كتفضيل الابن على البنت.

ورغم موت أولاده ﷺ في طفولتهم إلا أنَّ هذه المساواة في التعامل والمحبة تظهر في معاملته مع بناته، فإن كثيرًا من ضعاف القلوب إذا لم يُرزَق بالولد أساء معاملة البنت! ورسول الله ﷺ كان مكرمًا لبناته أيّما إكرام، فعن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قال: - ما رأيتُ أحدًا كانَ أشبَه سمتًا وَهديًا ودلًّا برسولِ اللَّهِ ﷺ من فاطمةَ كَانت إذا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قامَ إليهَا فأخذَ بيدِها وقبَّلَها وأجلَسَها في مجلِسِه...»[1].

---

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد (971)، وأبو داود في سننه (5217)، والترمذي في سننه (3872)، والحاكم في المستدرك (4732) عن عائشة أم المؤمنين.

وكان يقول: «فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فمَن أغْضَبَها أغْضَبَنِي»[1]، وكان إذا رأى ملامة في عين أحدٍ على هذه المحبة وهذا الإكرام قال له: «لا يُكرِمُ المرأةَ إلا كَريم»[2].

وكان يُسوءه أيّ موقف يشم فيه رائحة التفضيل الكريهة، فقد جلس إليه أحد أصحابه، فدخل عليه ولدُه فأجلسَه على فخذه، ثم دخلت ابنته فأجلسَها بين يديه على الأرض!

ورغم أنَّ هذا الصحابي قد لاطف ابنته وألان لها الحديث كما لاطف ولده سواء بسواء إلا أنَّ ذلك لم يشفع له عند رسول الله ﷺ فقد نظر إليه نظرة المستنكر، وقال له: «هلا على فخذك الأخرى»؟! أي: هلا أجلستها على الناحية الأخرى بمحاذاة أخيها! فحملها على فخذه الأخرى، قال له النبي ﷺ: «الآن عدَلْت»[3].

ولعل هذا الموقف وأمثاله هو ما دفع النَّبي ﷺ أن يقول: «سوُّوا بين أولادِكم في العطيَّةِ ولو كنتُ مُؤثِرًا أحدًا لآثرت النِّساءَ على الرجال»[4].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (3510)، (3556)، ومسلم في صحيحه (2449) عن المِسور بن مخرمة.

[2] أخرج ابن عساكر في كتاب الأربعي في مناقب أمهات المؤمني 109، عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): «خيرُكُم خيرُكم لِأَهْلِهِ، وأنا خيرُكم لِأهْلِي، ما أكرَمَ النساءَ إلَّا كريمٌ، ولَا أهانَهُنَّ إلَّا لئيمٌ».

[3] رواه ابن أبي الدنيا في النفقة على العيال: بَابُ الْعَدْلِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ (36) عَنِ الْحَسَنِ.

[4] رواه سعيد بن منصور في سننه (393) عَنْ يَحْيَى بْنِ أبِي كَثِيرٍ، والحارث في بغية الباحث (454)، والطبراني في المعجم الكبير (11997) عَنِ ابْنِ عَبَّاس.

وليست المساواة في المعاملة وفي العطية مطلوبة بين الولد والبنت فقط، بل حتى بين الذكور أنفسهم، فلا يصح أن يميز ولده فلانًا عن ولده فلان، وهذا الفعل يكثر ممن تزوج بأكثر من واحدة، فيميز ولدَه من فلانة عن ولدِه من فلانة.

ومثل هذا الموقف حدث على عهد النبي ﷺ حينما جاءه الصحابي الجليل (بشير بن سعد) يريد أن يشهده على عطية يريد أن يعطيها لولده النعمان، وهذه العطية عبارة عن بستان، فسأله النبي ﷺ: سؤالًا لا يفكّر فيه إلا ذو مروءة وشهامة وإنسانية وأمانة: يا بشير! أكُلَّ ولدك أعطيته مثله؟!

فقال سيدنا بشير: لا يا رسول الله.

فقال له النبي ﷺ: «فلا تُشهِدْني إذَن؛ فإنِّي لا أشهَدُ على جَورٍ».[1]

وليست المساواة هنا مقصودة بذاتها، وإنَّما المقصود هنا هو العدل، فالمساواة لا تعني العدل في جميع الأحوال، فقد يكون لأحد الأبناء حق زائد على إخوته في مال أبيه بسبب عمل أو رعاية...

والعدل بين الأولاد لا يكون في الأموال والأغراض فقط، بل في كل شيء حتى النظرة والقبلة، كما كان يفعل النبي ﷺ مع حفيديه الحسن والحسين (رضي الله عنهما)؛ فقد دخل عليه الأقرع بن حابس وهو يقبلهما، فتعجب وقال: أتقبلون صبيانكم؟! والله إنَّ

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (1623)، والبزار في البحر الزخار (3283)، والنسائي في سننه (3681).

لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم! فقال له النبي ﷺ: «إنَّه مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ!»[1]

فعلاقة سيدنا النبي ﷺ مع أبناءه كانت علاقة المحبة والرحمة المتمثلة في قوله: «فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها»[2]، ولا يمكن لهذه العلاقة أن تفتنه عن دينه، أو تطغيه على عقيدته، وذلك متمثل في قوله: وايْمُ اللَّهِ لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.[3] وحاشاها (صلوات الله وسلامه على أبيها وعليها)، وما كان لهذه العلاقة أيضًا أن تلهيه عن مقصوده وتقف حائلًا بينه وبين الدعوة لعقيدته، وتبليغ رسالته، أو تبعده عن معبوده، فقد وصفه أهل بيته أنه كان يمازحهم، ويساعدهم في أعمال البيت، فإذا حضرت الصلاة خرج كأنَّه لا يعرفُ منهم أحدًا.[4]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (5997)، ومسلم في صحيحه (2318)، عن أبي هريرة (رضي الله عنه). عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه: أنَّ الأقرعَ بنَ حابسٍ أبصَرَ النَّبيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الحَسَنَ. فقال: إنَّ لي عَشَرةً مِن الولَدِ ما قبَّلتُ واحِدًا منهم! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّه مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ!

[2] رواه أحمد في مسنده (16123)، بلفظ: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَيُنْصِبُنِي مَا أَنْصَبَهَا»، وأخرجه الترمذي (3869)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثان (2957)، والطبراني في الكبير (277)، وعند ابن أبي عاصم والطبراني: «ويغضبني ما أغضبها».

[3] رواه البخاري في صحيحه (3288)، ومسلم في صحيحه (1688) عن عائشة (رضي الله عنها).

[4] روى البخاري في صحيحه (644) عن الأسود قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ما كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَصْنَعُ في بَيْتِهِ؟ قالَتْ: كانَ يَكونُ في مِهْنَةِ أهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ.

وكان رسول الله ﷺ يوازن بين علاقاته بالناس، فلا تجد مصادمةً بين واحدة وأخرى، ولا توثيقًا لعلاقة على حساب أختها، وقلَّ أن تجد هذه الخصلة في إنسان.

وليس هذا كلامًا إنشائيًا، وإنّما هو الحق الذي تشهد به الوقائع والمواقف.

فهذه أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) تقول لسيدة النساء أم أبيها فاطمة بنت سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه): إنَّ أباك تزوج أمك ثيبًا -أي: سبق لها الزواج قبله، وتزوجني بكرًا- أي: لم يسبق لي الزواج قبله.

فلم تجبها سيدتنا الزهراء (رضي الله عنها) وذهبت إلى سيدنا النبي ﷺ وقصَّت عليه القِصّة، فضحك النبي ﷺ، وقال لها: يا فاطمة! قولي لها: إنَّ أمي قد تزوجت أبي بكرًا -أي: لم يسبق له الزواج، وتزوجته ثيبًا -أي: سبق له الزواج!

فاستطاع النبي ﷺ أن يخرج من الموقف بسلام، ولقَّن الحجّة للسيدة فاطمة (رضي الله عنها) حتى تقوم حجة أمام حجة، ويخرج الطرفان من الموقف بلا انتصارٍ ولا هزيمة.

وأوضح من هذا الموقف موقفه ﷺ مع ابنته السيدة زينب (رضي الله عنها) لمَّا أسرَ المسلمون زوجها في غزوة بدر، وكان من بين ما أرسلته لفدائه قلادة ذهبية ورثتها عن أمِّها أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها)، فلمَّا نظر النبي ﷺ إلى القلادة عرفها، فشقَّ عليه ذلك، وهو يعلم قدر القلادة عند ابنته زينب!

كان بإمكان النبي ﷺ أن يستأثر بالقلادة لنفسه من بين الغنائم ويردها على ابنته زينب، ولكن ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾[آل عمران:161]، وكان بإمكانه أن يطلق أسيرها بدون فداء، ولكنها الأمانة والعدل في أسمى معانيهما.

وهنا تتجاذب النبي ﷺ مشاعر الأبوة الخاصة لابنته زينب، والأبوة العامة للمسلمين جميعًا، أيهما أحق بتلك القلادة؟! فينظر إلى أصحابه نظرة الأب الحنون، ويقول لهم: «إِنْ رأيتُم أن ترُدُّوا عليهَا قلادَتَها، وتُطلِقُوا أسيرَهَا فافعَلُوا»[1]، فوكل الأمر إليهم!

وما كان لهم أن يتأخروا عن مرضاة النبي ﷺ، فلبوا رغبته، وأطلقوا سراح العاص بن الربيع وردوا على السيدة زينب (رضي الله عنها) قلادتها.

وما دمتُ قد تعرضتُ لعلاقة النبي ﷺ مع أبنائه وجب عليَّ أن أذكر علاقته بالأطفال الصغار عمومًا، فالشيء بالشيء يُذكر.

فالنبي ﷺ قد عبَّر عن حب الأطفال بأنه رحمة، كما في قصة ولده سيدنا إبراهيم، وكذلك قصة وفاة حفيده التي مرَّت بنا قريبًا.

وقد كان يتجوَّزُ في الصلاة -التي جعلت قرت عينه فيها- لأنَّه سمع بكاء الصبي، فيقول: «إِنِّي لأقومُ إلى الصَّلاةِ وأنا أريدُ أن أطوِّلَ فيها، فأسمعُ بُكاءَ الصَّبيِّ فأتجوَّزُ كراهيةَ أن أشقَّ على أمِّهِ»[2].

---

[1] رواه أحمد مسنده (26362)، وأبو داود في سننه (2692)، والحاكم في المستدرك (4306).

[2] رواه البخاري في صحيحه (675)، ومسلم في صحيحه (470).

وكان يُمازح الصغير الذي مات طائره، ويقول له: « أَبَا عُمَيْرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ»[1]، وكان سيدنا الحسن وسيدنا الحسين (رضي الله عنهما) يركبان على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد فلا يقوم حتى ينزلا.

فهذه المرحلة الطفولية تتطلب أن أعلق الطفل بي، وأحببه فيَّ، وأكون أقرب إليه من كل شيء، حتى أستطيع أن أعلمه ما ينبغي أن يتعلمه في المرحلة التي تليها، وهي مرحلة التعليم، وفي مرحلة التعليم تكون المعاملة عبارة عن التوجيه برفق، كما فعل سيدنا النبي ﷺ مع ربيبه -ابن زوجته- عمر بن أبي سلمى لما رأى يده تطيش في إناء الطعام يمينًا وشمالًا، فقال له: «يا غلام! سمِّ اللَّه، وكُلْ بيمينِك، وكُلْ ممَّا يلِيك»[2]، ثم يتركُ استجابة الأمر لقدر محبة الطفل له، ولا يُعنِّفه على التقصير في هذه المرحلة كما قال سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه): خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفّ قط، ولا قال لشيء: لِمَ فعلته؟ وهلا فعلت كذا، ولا عابَ عليَّ شيئًا؟»[3]

ولا يعنفه على التقصير، ولكن كان يتركه يقتدي به على قدر محبته، كما فعل سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)، ولنتركه يحكي لنا قصته.

يقول رضي الله عنه: بتُّ عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (5778) ابن الجعد في مسنده (1409)، وابن أبي شيبة في مصنفه (4087)، وأحمد في مسنده (12137).

[2] رواه البخاري في صحيحه (5061)، ومسلم في صحيحه (2022).

[3] رواه البخاري في الأدب المفرد (277)، وعبد الرزاق في مصنفه (17946).

يصلي من الليل، فقمت أصلي معه، فقمت عن يساره فأخذ برأسي وأقامني عن يمينه»[1].

هذه التربية هي التي خرجت الإمام الذكي القائد (علي بن أبي طالب)، والبطل الصنديد (زيد بن حارثة)، والأمير الشجاع (عبد الله بن الزبير)، والقائد المحنك (أسامة بن زيد)، والعالم النحرير (عبد الله بن عباس)، وغير هؤلاء الأبطال الذين رباهم النبي ﷺ منذ الصغر؛ رضي الله عنهم أجمعين.

[1] رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (2754).

الفصل الثالث (العَلاقَةُ مَعَ الزَّوْجَات)

كان النبي ﷺ يحل زوجاته المحلّ الأجلّ من قلبه، ويعرف موضع رضاهنّ وغضبهنّ، ولا يعاملهنّ معاملة النبي لقومه، وإنَّما معاملة الزوج المثالي الذي كان مطمعًا للنساء بسبب هذه المثالية، فنحن لا ننسى طلب السيدة خديجة (رضي الله عنها) الزواج منه وهو في الخامسة والعشرين من عمره. ولنا أن نطالع التاريخ لنرى كيف تعامل الأزواج مع زوجاتهم في هذه الحقبة من تاريخ البشر!

فقد كان يُنظر للزوجة -غالبًا- على أنَّها إحدى أمتعة البيت! ولا علاقة لها بأي شيء خارج البيت! وأنَّها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا! ولا قرار لها، بل لا رأي لها في توجيه سفينة الأسرة والبيت!

ولا أدلّ على ذلك من موقف سيدنا عمر رضي الله عنه من زوجته لما راجعته في أحد قراراته وناقشته فيه، فقال لها: أتراجعينني؟!

فقالت له: ولم لا وحفصة ابنتك تراجع رسول الله ﷺ حتى يظلّ يومه غضبان؟![1]

فقد استغرب فعلها الذي لم يعهده عليها -ولا على غيرها- من قبل!

ولكنَّها ثورة المعاملة التي تزعمها سيدنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد نجحت نجاحًا باهرًا في وقتٍ كانت بعض الدول

[1] الخبر بطوله رواه البخاري في صحيحه (4629).

المحيطة بهم تعقد المؤتمرات لتحدد جنس المرأة أهي أقرب للإنسانية، أم للحيوانية؟!

وما أحوجنا هذه الأيام لثورة معاملة يقودها أهل الإخلاص لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، ولعل الناس ترجع إلى قيمها وأخلاقها.

وقد كان النبي ﷺ يتجنب أن يكسر زوجاته كسرًا لا تلئمه الأيام، وجرحًا لا تضمده الاعتذارات، وذلك كضرب الزوجة باليد!

تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة ولا خادمًا قط»![1]

أو كإخراجها من بيتها -لأي سببٍ كان- حتى لا تشعر بالضعف والمهانة، بل كان إذا غضب خرج هو من البيت ومكث في المسجد! وفي صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ غاضب زوجاته، فاعتزلهنَّ شهرًا في المسجد، ولم يدخل على واحدةٍ منهنّ فيه!

وكان ﷺ يُقدِّر غيرتهنّ، ويحتويهنّ عند الغضب، ولا يغضب منهنّ بسبب أمرٍ جُبلن عليه!

فهذه أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لما كان النبي ﷺ في بيتها جاء بعض أصحابه وجلسوا إليه يُحَدِّثهم، فعلمت إحدى أمهات المؤمنين أنَّ عند رسول الله ﷺ ضيوفًا، فأرسلت إلى النبي وأصحابه إناءً مملوءًا بالحلوى، فلما وصل هذا الإناء إلى بيت السيدة عائشة (رضي الله عنها) وعلمت مصدره أخذته فكسرته من شدة غيرتها؛ لأنَّ هذا يومها في رسول الله ﷺ!

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (79).

كسرته ورسول الله ينظر! ورأى فعلها هذا ولم يقم إليها ليضربها، ولا شتمها وآذاها بالكلام -وهذه رسالة إلى جميع الأزواج- ولكنَّه امتصَّ غضبها بابتسامة ارتسمت على شفتيه المباركتين، وامتص غضب الجالسين- الذين لم يعهدوا من زوجاتهم هذا الفعل، ولم تعهد عليهم زوجاتهم هذا الرد، وقام إلى الإناء يجمع فيه الطعام بنفسه ويقول لهم: «غارَتْ أمُّكُم»[1] أي: فعلت ما فعلت لشدة غيرتها، فالدافع لهذا الفعل هو أمر جُبلت عليه فوجب الرفق بها في ردة الفعل، ومرَّ الموقف بسلام وكأنَّ شيئًا لم يكن، فما كان من رسول الله ﷺ أن يؤاخذ أحدًا بأمر جبله الله عليه، ولكنّه يتوجه إلى ربه بالدعاء، كما دعا لسيدتنا أم سلمة (رضي الله عنها) أن يُذهب الله غيرتها، وذلك لما خطبها بعد وفاة زوجها أبي سلمة (رضي الله عنه) فاعتذرتْ إليه وقالت: «يَا رسولَ اللهِ! أنا امرأةٌ مُسنَّة، ولي أولادٌ، وشديدةُ الغِيرَة! فقالَ لها: أمَّا السِّنُّ فأنا أكبرُ منكِ، وأما أولادك فأضمُّهم إليّ، وأما الغيرةُ فأدعو الله أن يذهبها عنكِ»[2].

وكان ﷺ يشاور زوجاته ويأخذ برأيهنَّ في كثيرٍ من الأمور، حتى فيما يتعلق بمعاملته مع الناس! بل وما يتعلق بأمور الحرب والدولة وبنائها!

ولا أدلَّ على ذلك من موقفه من رأي زوجته أم سلمة (رضي الله عنها) يوم صلح الحديبية، فتروي لنا كتب السيرة أنّ النبي ﷺ

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (4927) عن أنس (رضي الله عنه).

[2] رواه الطبراني في المعجم الكبير (497)، (499).

وأصحابه قد توجهوا إلى مكة محرمين لأداء مناسك العمرة، فلقيهم المشركون في طريقهم إلى مكة، ودار بينهم حوار أسفر في نهايته عن كتابة صلح بين القرشيين والمسلمين، وكان في بعض بنوده إجحاف بالمسلمين، ومررها النبي ﷺ لبعد نظره ولجنوحه للسلم، ولكنَّ كثيرًا من الصحابة لم يدرك ذلك، وكان من بين هذه البنود أن يرجع النبي ﷺ والمسلمون معه إلى المدينة هذا العام، وأن يعتمروا العام المقبل! فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا من الإحرام، ولكن الصحابة تأخروا في تلبية النداء لعله يجِدّ في الأمر جديد ويعتمروا هذا العام!

فدخل النبي ﷺ على السيدة أم سلمة يُعرف في وجهه الحزن، فسألته عن سبب حزنه، فأخبرها ببطء الصحابة في تلبية النداء، وتنفيذ الأمر، فقالت له: يا رسول الله! لو خرجت وحلقت أمامهم لحلقوا جميعًا، فاستجاب النبي ﷺ لطلبها، وأخذ بمشورتها، وخرج وحلق أمام الصحابة، فحلقوا جميعًا رؤوسهم.

هذه المواقف كلها تبين كم كان النبي ﷺ حفيًّا بزوجاته، محبًا لهنَّ، محترمًا لإنسانيتهنّ، ينظر إليهنَّ نظرة متجردة عن مكانته بين الناس، وأنَّه أكرم خلق الله على الله، فكان يمازحهنّ، ويلاعبهنَّ، ولا يُحاسبهنَّ على التقصير في أعمال البيت حتى ولو كان هذا العمل متعلقًا بطعامه وشرابه! فكان إذا أصبح سألهنَّ: «هل عندَكُم طعَام؟» فإذا قلن: لا، قال: «إذًا فإنِّي صائم.»[1]

[1] رواه مسلم في صحيحه (1154).

وكان يحترم شعورهنَّ، ويثق فيهنَّ ثقةً عظيمة، فلم يكن يدخل عليهنّ دخول من ملأ الشك قلبه، وإذا كان مسافرًا ووصل المدينة ليلًا بات على أطرافها، ولا يدخل عليهنَّ بالليل، حتى لا يراهنَّ في موقفٍ أو على هيئةٍ لا يرضيهنّ أن يراهنّ عليها، ولكن يمهلهنّ حتى يصلحن من أنفسهنَّ، ويكنَّ على استعداد للقائه.

وما دمتُ قد ذكرتُ حاله ﷺ مع نسائه وجب عليَّ أن أذكر حاله مع النِّساء عمومًا فالشيء بالشيء يُذكَر؛ فالنبي ﷺ أول من جعل يومًا للمرأة يكرمها فيه، استجابةً لطلب إحدى النساء التي لم يمنعها الحياء من المطالبة بحقها، فقالت: يا رسول الله! غلبنا عليك الرِّجال! فاجعل لنا من نفسك يومًا، فجعل لهنَّ يومًا لقيهنَّ فيه.[1]

وقد أشارت بعض الروايات إلى هذا اليوم وأنّه كان يوم الخميس.

وكانت البنت تُمسك بكم النبي ﷺ فتطوف به في شوارع المدينة حتى يقضي لها حاجتها.[2]

وكان يقول عن البنات: «لا تكْرَهُوا البنَاتِ فإنهُنَّ المؤنِسَاتُ الغَالِيَات»[3]، ويُوصي بالنِّساء ويقول: «استَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا»[4].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (101) عن أبي سعيد الخدري.

[2] روى البخاري في صحيحه (5724) عن أنس بن مالك قال: كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حيْثُ شَاءَتْ.

[3] رواه أحمد في مسنده (17373)، وابن أبي الدنيا في النفقة على العيال (97)، والطبراني في المعجم الكبير (856) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ.

[4] رواه مسلم في صحيحه (1468) عن أبي هريرة.

ولستُ هنا في معرض الحديث عن تكريم الإسلام للمرأة، فليس هذا موضوع الكتاب، وإنما أتحدَّث عن نظرة رسول الله ﷺ للمرأة.

ويمكنني أن أقول -وبكل ثقة- إنَّ ما كان يبطنه النبي ﷺ من تكريمٍ للمرأة أكثر مما كان يُظهره، وذلك لأنَّ المجتمع آنذاك -وموقفه من المرأة معروف- لم يكن ليتقبل أكثر من هذا التكريم! وقد ترك النبي ﷺ إعادة بناء الكعبة خشية إنكار النَّاس وانقلابهم على أعقابهم؛ لأنَّهم حديثو عهدٍ بالإسلام.

ولكنَّه أجمل تقديره للمرأة وتكريمه لها في جملة واحدةٍ يقيمها كل امرئٍ على حسب إنسانيته، وقال: «لا يُكرِمُ المرأَةَ إلَّا كَرِيم»[1].

[1] أخرج ابن عساكر في كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين (109) عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنه) قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهْلِهِ وَأنَا خَيرُكُمْ لأَهْلِي وَمَا أكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ وَلا أهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ».

الفصل الرابع (العَلاقَةُ مَعَ أُولِي الأَرْحَام)

لم تكن علاقة النبي ﷺ بشخص ما مرتبطة بطريقة تعامل هذا الشخص مع حضرته، وإنَّما كان يُعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه. ويقول: «ليسَ الواصلُ بالمكافئ إنَّمَا الواصِلُ منْ إذا قُطِعَتْ رحمُهُ وَصَلَها»[1].

وقد أرَّقه أنين عمّه العباس في القيد فلم يستطع النوم يوم بدر، فقال له أصحابه: يا رسولَ الله! مالكَ لا تَنَام؟ فقال: «سمعتُ أنينَ عمّي العبّاس في وثاقِهِ، فأطلَقُوه، فسَكَتَ، فنَامَ رسول الله ﷺ.[2]

ولما كان سيدنا حسان بن ثابت (رضي الله عنه) يهجو المشركين؛ لإيذاءهم النبي ﷺ كان النبي يأمره أن يأخذ معه سيدنا أبا بكر (رضي الله عنه)؛ لأنَّه كان عالمًا بأنساب العرب؛ حتى لا يهجو أحدًا من أقارب النبي ﷺ.

وليس من العجيب أن يحب أحدٌ أقاربه، وأن يصلهم ويصلونه، أو حتى يصلهم ويقطعونه، وإنّما العجيب حقًا أن يخذلوه فينصرهم، أن يخرجوه من بيته فيجعل بلدهم حرمًا آمنًا لا يجوز لأحدٍ أن يقطع شجره فضلًا عن إيذاء أحدهم! أن يزدروه ويقولوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:31] فيعظمهم

[1] رواه البخاري في صحيحه (5645)، وفي الأدب المفرد (68)، وأبو داود في سننه (1697)، والترمذي في سننه (1908).

[2] رواه البيهقي في السنن الكبرى (18145) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما).

ويقول: «قدِّموا قريشًا ولا تَقدَّموها»[1]، أن يُنكِروا اصطفاءه فيثبت اصطفاءهم، ويقول: «إنَّ اللهَ اصطفَى من إسماعيلَ كنانة، واصطفى من كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشِم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيارٍ»[2].

وأن يصروا على قتله، فيصر على حياتهم، وما يوم «اذهبوا فأنتُمُ الطُّلَقَاء» عنَّا ببعيد!

ولم يكن يخص الأقربين من أولي الأرحام بالإكرام فحسب، وإنّما من بعُد منهم أيضًا -سواءً في القرابة أو في المكان- فقد كان ينادي على سيدنا سعد بن أبي وقَّاص -صاحب الستة عشر عامًا- بكل توقيرٍ وتبجيلٍ، ويقول لأصحابه: «هذا خالي فليرني امرؤٌ خاله[3] لأنَّه كان من بني زهرة قبيلة السيدة آمنة (رضي الله عنها) والدة رسول الله ﷺ.

وأبعد من ذلك وصيته أصحابه بالمصريين؛ لأنَّ جدّته الكبرى السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل (عليه السلام) كانت مصرية، فكان يقول: «إنّكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإنَّ لهم ذمةً ورحمًا»[4].

---

[1] رواه الشافعي في مسنده 278، وأحمد في فضائل الصحابة (1066)، وابن أبي عاصم في السنة (1519)، والبزار في البحر الزخار (465)، والبيهقي في شعب الإيمان (1490)، وفي معرفة السنن والآثار (217).

[2] رواه مسلم في صحيحه (2276).

[3] رواه الترمذي في سننه (3752)، والطبراني في المعجم الكبير (323).

[4] رواه مسلم في صحيحه (2543) عن أبي ذر.

وكان يُكرِم بني سعد كلهم؛ لأنَّهم قوم السيدة حليمة السعدية (رضي الله عنها) التي أرضعت حضرته.

ومن مظاهر إكرام النبي ﷺ لأقاربه وأولي رحمه أنَّه كان يحمل عنهم ما يُثقل كاهلهم ويعينهم على نوائب الدهر! فقد تكفَّل بتربية ابن عمه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ تخفيفًا عن عمّه أبي طالب؛ لأنَّه كان كثير العيال، فأخذ النبيّ ﷺ سيدنا عليًّا من أبيه وضمَّه إلى أولاده، يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، وأكرم بذلك كرامةً لسيدنا أبي الحسنيين رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه.

وكان يتجنب أن يُدخل الحزن على قلوبهم، أو أن يكون سببًا في ذلك، وما حدث يوم وقعة أُحد خير شاهدٍ ودليل، لما مثَّل المشركون بجسد عمه حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) فقال النبي ﷺ: «لولا أن تَجزعَ صفيَّةُ لترَكْتُهُ حتَّى يَحشرَهُ اللَّهُ من بُطونِ الطَّيرِ والسِّباع»[1]؛ من شدة حُزنه على عمه الذي توجَّه إليه وقال: يا عم! ما أُصِبْتُ بمثلك، وفي هذه الوقعة يقول سيدنا عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه)[2]:

بكت عيني وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ
على أسدِ الإله غداةَ قالوا: ... أحمزةُ ذاكم الرجل القتيلُ؟!
أُصيبَ المسلمون به جميعًا ... هُناك وقد أُصيب به الرسولُ
أبا يعلى لك الأركان هُدَّت ... وأنت الماجدُ البَرُّ الوَصولُ

[1] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (39515)، وأحمد في مسنده (12300)، والترمذي في سننه (1016)، والحاكم في المستدرك (4887) عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه).
[2] الأبيات أوردها ابن هشام في السيرة (16/2) باب ما قيل من الشعر يوم أُحُد.

هذه السلمية بل هذه المثالية في التعامل مع الأهل والأقارب، توجب عليهم محبتهم لحضرته، ولو على المدى البعيد، وتحتّم عليهم مسالمته يومًا من الأيام، فالإنسان عبد الإحسان، والمعروف يأسره، ويجعله تبعًا ومنقادًا لصانع هذا المعروف.

هذه الرقة في التعامل، وهذا الإحسان في المعاملة نقَلت هؤلاء الأهل والأقارب من مرحلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر:6] إلى مرحلة «أخٍ كريمٍ، وابن أخٍ كريم»[1].

إنَّك لست بحاجةٍ أن تتعلم فن التعامل، أو فنِّ ترويض البشر حتى تتعايش مع الناس بسلمية، وتعيش بينهم في هدوء، ولكنّك في حاجة ماسّة أن تبحث لك عن قدوة في المعاملة، وعن مثلٍ أعلى في الحياة، وقد أفلحت ثمَّ أفلحت إن كان اختيارك لهذه الشخصية الفريدة من نوعها الموسومة بالاسم المفخم المعظم (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم.

يقول الدكتور النمساوي (شبرك):

إنَّ البشرية لتفتخر بانتساب رجلٍ كمحمدٍ إليها، إذ أنّه رغم أميته استطاع أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما يكون إذا توصلنا إلى قمته.

---

[1] الخبر بطوله رواه الأزرقي في أخبار مكة 121/2، وابن زنجويه في الأموال (456) والبيهقي في السنن الكبرى (18323).

الفصل الخامس (العَلاقَةُ مَعَ الأَصْدِقَاء)

إنّ الصديق الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومَن إذا ريب الزمان صدَّعك شتّت فيك شمله ليجمعك[1]

من كان معك بقلبه، ولسانه، ووجدانه، وكل كيانه، ومن يدخل السرور عليك، ويُقيم الأفراح بين يديك، ومن يأخذ بيديك إلى الخير، ولا يجرّك -أبدًا- إلى الضير.

رغم ثقل الحمل، وكثرة الشواغل إلا أنَّ النبي ﷺ كان خير صديقٍ لأصدقائه؛ يستضيفهم في بيته فيتسامرون، يسمعهم ويسمعونه، ويُضحكهم ويُضحكونه، ويزورهم في بيوتهم بين الحين والآخر، ويتفقد أحوالهم كل يوم بعد صلاة الفجر، حتى أنَّه ليسأل عن حالهم في نومهم: هل رأى أحد منكم اليوم رؤيا؟

كانت العلاقة بينهم علاقة الروح الواحدة التي لا تختلف فيما بينها في تصديق أمرٍ ولا تكذيبه، حتى أنَّ النبي ﷺ كان يشعر بما يشعرون به! ألا ترى قوله لما أخبرهم بقصة الذئب الذي تكلم، فقالوا: «سبحَانَ اللَّهِ! ذئبٌ يتكلَّم!» فقال: «أنا أؤمن بذلِكَ أنا وأبو بكرٍ وعمر».[2]

---

[1] ترددت نسبة البيتين، واختلفت رواية البيت الأول والبيتان في التمثيل والمحاضرة 463، وربيع الأبرار (196) 195/5، والمستطرف 70، 131.

[2] الحديث بطوله رواه البخاري في صحيحه (1347).

وكان ﷺ يجد في نفسه ما يجد لمرض أحدهم أو شكوته، فقد أهمَّه مرض سيدنا أبي بكر كثيرًا لما دخل المدينة واكتوى بحرها فأصابته حمى شديدة كان يهذي بسببها، فقال النبي ﷺ «اللهم حَبِّب إلينا المدينة كما حبَّبت إلينا مكَّة أو أشدَّ حبًّا».[1]

وكان يشتاق إليهم إذا غابوا عنه، ويبادلهم نظرات المحبَّة حتى ولو أخطئوا في حقه، وإن شئت قل: في حقِّ أنفسهم!

وما أجمل هذه الصورة التي يصورها لنا سيدنا كعب بن مالك (رضي الله عنه) أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة (تبوك) بلا عذر، فنهى النبي ﷺ المسلمين أن يكلموهم، أو يجالسوهم حتى يحكم الله فيهم!

وكان سيدنا كعب يذهب للصلاة في المسجد النبويّ ويرجع دون أن يكلّم أحدًا أو يكلمه أحد! ولم يكن هذا ما يشغله، ولكن كل ما يهمه هو نظره إلى رسول الله ﷺ ونظر النبي إليه، ويحكي هو عن نفسه فيقول:

وكنتُ إذا دخلتُ في الصلاة نظر إليَّ رسول الله ﷺ، فأقول في نفسي: أينظر إليَّ أم لا؟ فإذا نظرتُ إليه أشاح بوجهه عنِّي، فإذا التفتُّ إلى صلاتي نظر إليّ...

ينظر إلى صاحبه كعب بن مالك وكأنّه قد اشتاق إليه وإلى حديثه، ولكن لا سبيل إلى ذلك، فيشبع عينيه من النظر إليه!

---

[1] رواه الإمام مالك في الموطإ من رواية أبي مصعب الزهري (1858)، والبخاري في صحيحه (3711)، ومسلم في صحيحه (1376).

كان ﷺ يحبهم لدرجة أنّه كان إذا آكلهم وضع اللقمة في أفواههم بيده الشريفة، وإذا شاربهم قدّمهم كما سقى سيدنا أبا هريرة (رضي الله عنه) اللبن قبله ثم شرب هو، وإذا ماشاهم مشى خلفهم؛ ليتفقدّهم، كما رُوي في وصف مشيته «يسوقُ أصحابَه بيدِه».[1]

وإذا جالسهم لم يتميز عنهم! فيأتي السائل فيقول: «أيكم مُحمَّد بن عبد الله؟!»

وإذا قاتل معهم كان أقربهم للعدو؛ ليحتموا فيه، يقول سيدنا علي (رضي الله عنه): «كُنّا إذا حمي الوطيس -أي: اشتدَّت الحرب واستعرت- اتَّقَيْنا برسولِ اللَّهِ فيكونُ أقرَبَنا للعَدُوّ»[2].

وإذا رآهم في مأزقٍ دعا لهم، وفداهم بأبيه وأمِّه، كما كان يقول لسيدنا سعد بن أبي وقاص في أُحُد: «ارم سعد، فداك أبي وأمِّي»[3].

وإذا رأى حاجتهم ساعدهم بالطريقة المُثلى، بلا منٍّ، ولا أذى، وأكرم بموقفه من سيدنا جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) خير

---

[1] أخرج الزبير بن بكار في الأخبار الموفقيات (211) عَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: سَأَلْتُ خَالِي هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ التَّمِيمِيّ، وَكَانَ وَصَّافًا عَنْ حِلْيَةِ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ... فَعَدَّ من أوصافه ﷺ: «يَسُوقُ أَصْحَابَهُ، ويَبْدُرُ مِنْ لَقِيَهُ بِالسَّلامِ»، كذا في الشمائل المحمدية للترمذي (8)، وفي الشريعة للآجري (1022)، وأبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (565).
وَقَوْلُهُ: «يَسُوقُ أَصْحَابَهُ»: يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا مَشَى مَعَ أَصْحَابِهِ قَدَّمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَشَى وَرَاءَهُم.

[2] رواه ابن الجعد في مسنده (2561)، واحمد في مسنده (1042)، وأبو يعلى في مسنده (302).

[3] رواه أبو داود (104) وأحمد في فضائل الصحابة (1314)، وفي مسنده (1017)، وابن ماجه في سننه (129)، والترمذي في سننه (3755) عَنْ عَلِيٍّ كرم الله وجهه.

شاهدٍ ودليل على ذلك، لمَّا رأى حاجته للمال اشترى منه بعيرَه -أي: جَمَلَه- وأعطاه ثمنَه، وبعد أيامٍ دعاه فأعطى له البعير على سبيل الهدية!

وإذا وجد من بينهم غريبًا قرّبه، وفي «سَلْمَانُ منَّا آلَ البَيْتِ»[1] الخبر اليقين، والنور المبين؛ لمَّا وجدهم يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم، كل واحد منهم يقول: أنا ابن فلان ومن قبيلة كذا وكذا، والتي مفاخرها كذا وكذا!

وجاء الدور على سيدنا سلمان الفارسي (رضي الله عنه) فلم يتكلم، وكأنّه شعر بغربته بينهم، فتجاذبوه بينهم جبرًا بخاطره، كل منهم يقول سلمان منا.

فرفعه النبي ﷺ إلى المحلّ الأجلّ، والدرجة العالية الرفيعة، وقال: «سَلْمَانُ منَّا آلَ البَيْتِ».

لأجل هذه المعاملة، وهذه المحبة، كان النبي ﷺ أحبَّ إليهم من كل شيء، فقد بادلوه الحب بالحب، والإكرام بالإكرام، وقدموا صحبته على المال والولد، كما قدَّمهم هو قبل ذلك، ولما قال لهم: «أفلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبعيرِ وتَرجِعونَ برسولِ اللَّهِ ﷺ في رحالِكُم؟»[2] قالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا.

---

[1] الحديث رواه ابن سعد في الطبقات 82/4، 318/7، والطبراني في الكبير 260/6، والحاكم 598/3، والبيهقي في الدلائل 418/3، من حديث عمرو بن عوف مرفوعًا.

[2] الحديث بطوله رواه البخاري في صحيحه (4075)، (4078)، وأحمد في مسنده (16470).

فاعلم -أيها القارئ الكريم- أنّك لن تجني سُكَّرًا من حنظلٍ، وأنّك متى قدّمت الخير وجدته أمامك، وإذا صاحبت الناس بالحسنى صاحبك النَّاس بالحسنى، وتخيَّر من تجالسه وتجانسه وتصاحبه فالمرء على دين خليله فانظر من تخالل وتصاحب.

الفصل السادس (العَلاقَةُ مَعَ المُخَالِفِينَ فِي الرَّأْيِ)

إنَّ السّلميَة المطلَقة مع كل من يخالفك في الرأي خلل كبير في فنّ التعامل، وطريق وعر آخره تجرؤ الناس عليك، وعدم اعتدادهم برأيك في كثيرٍ من الأوقات.

وإنَّما الطريقة المثلى أن تكون هذه السلمية مع من تلمس فيه المنهجية في المخالفة، وأنّه يُدافع عن قضية معينة لها حظ من الصواب ولو في بعض جوانبها، ولا يخالف لمجرد المخالفة ولفت النظر.

على هذا الأساس كانت معاملة النبي ﷺ مع من يخالفه في الرأي، وكان يسمع قوله حتى يفرغ من كلامه، حتى ولو كان يتكلم في ثوابت لا يمكن أن تتغير بأي حالٍ من الأحوال!

ولا أدلّ على ذلك من قصته مع عتبة بن ربيعة لما أرسله قومه إلى النبي ﷺ يكلمه لعله يرجع عن دعوته! فجاء عتبة للنبي ﷺ وهو جالس عند الكعبة، وقال له: يا ابن أخي! أرسلني قومك إليك أعرض عليك! فقال له: هاتِ يا أبا الوليد!

فأخذ يسرد عروض قريش المغرية على النبي ﷺ من مُلكٍ، ومالٍ، وجاهٍ... مقابل أن يترك أمر دعوته للإسلام، والنبي ﷺ يسمعه ولا يتكلم، ولم يقطعه بكلمة واحدة، رغم أنَّه يراجعه فيما لا يمكن الرجوع عنه.

فلما فرغ قال له النبي ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع منّي»، فقرأ النبي ﷺ أول سورة فُصِّلت، فلمَّا وصل إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[فُصِّلت:13] وضع عتبة يده على فم النبي ﷺ وقال له: أنشدك الله والرحم إلا سكت! -خوفًا أن ينزل بهم العذاب- فسكت النبي ﷺ.[1]

ولم يكن الاختلاف في الرأي بالأمر المفزع الخطير الذي يهرب منه النبي ﷺ، فليس ذلك فعل الواثق من نفسه، ورأيه، وقراراته، وإنَّما كان يُحب المناقشة.

ودائمًا ما كان يطرح الأسئلة على جلسائه ليناقشوه، فإن اقتنع برأيهم أخذ به وإلا مضى فيما يريد، وإن وجد إصرارهم على رأي معين رجع إليه حتى لا يكسر بخاطرهم، ولنأخذ على القضايا الثلاثة ثلاثة أمثلة:

فأما المثال الأول فأخذه برأي الحُباب بن المنذر في مكان التمركز لانتظار جيش المشركين في غزوة بدر، فإنَّ النبي ﷺ لما وصل بجيش المسلمين إلى بئر بدر عسكَرَ خلفه وانتظر وصول الجيش القرشي إلى ساحة المعركة، فقال له الحباب بن المنذر (رضي الله عنه): يا رسول الله! أهذا منزلٌ أنزلكه الله فليس لنا إلا السمع والطاعة؟! أم هي الحرب والمكيدة؟!

فقال له النبي ﷺ: بل هي الحرب والكيدة.

---

[1] الخبر بطوله أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (185).

فقال: يا رسول الله! فإن هذا ليس بالمنزل! وأشار على النبي ﷺ أن يُعسكر أمام البئر أو قريبًا منه حتى يمنعوا المشركين من الوصول إليه والاستيلاء عليه أثناء المعركة.

فأخذ النبي ﷺ برأيه ولم يراجعه فيه.[1] وليست القضية في أخذ النبي ﷺ برأي الحباب، ولكن القضية في مراجعة الحباب للنبي ﷺ، ومناقشته له في مثل هذه المواقف المصيرية! وكونه يُبدي رأيه، ويطرح موقفه؛ فذلك لعلمه أنَّ هذا الرأي قد يدخل حيز التنفيذ ما دام قد أصاب عين الحكمة.

وهذا إن دلَّ فإنَّما يدل على حلم النبي ﷺ وسعة صدره، وقبوله لطرح الآراء، وعدم استبداده برأيه رغم شهادة الجميع له بالذكاء الخارق للعادة.

وأما المثال الثاني، فموقف يوم الحديبية الذي مر بنا قريبًا، والذي تمَّ فيه اتفاق بين المسلمين والمشركين رأى بعض الصحابة في بعض بنوده إجحافًا بحقوق المسلمين، وما وافق النبي ﷺ على هذه الشروط إلا لبعد نظره الذي ثبت صوابه في النهاية يوم فتح مكة.

ولكن هذه الشروط كانت بمثابة صدمة لبعض الصحابة الذين دفعهم حلم النبي ﷺ لمناقشته في مثل هذه البنود، وكان على رأس المصدومين من هذه البنود الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله

---

[1] الخبر بطوله أورده البيهقي في دلائل النبوة 35/3، والواقدي في المغازي 53/1، وابن هشام في السيرة 620/1، والطبري في تاريخ الرسل والملوك 440/2.

عنه) والذي تولى أمر مناقشة النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ألسنا على الحق؟! قال: بلى!

قال أليسوا على الباطل؟! قال: بلى!

قال: فلماذا نرضى بالدنية في ديننا ولا نقاتلهم؟!

ولم يكن النبي ﷺ بالذي يخبر بما في نفسه من خدعة الحرب، وترك الأيام تثبت لسيدنا عمر (رضي الله عنه) بعد نظر حضرته من وراء هذا الصلح «وقد كان»، فلم يعنفه النبي ﷺ ؛ لأنَّه يعلم أنَّه يُدافع عن قضية تستحق الدفاع عنها، ولا يُبدي رأيه تعصبًا لرأيه، أو إظهارًا لنفسه، أو مدفوعًا، أو مأجورًا! وإنما هي العقيدة، واليقين الكامل في قضية آمنت بها نفسه، وهذا اليقين جعله يُراجع رجلًا يؤمن تمام الإيمان أنّ كلامه من المسلمات.

وصفاء سريرته، وحسن طويته هو الذي جعل النبي ﷺ يقبل المناقشة حتى لا يترك في نفوس أصحابه حاجةً، أو رأيًا يظل حبيس الصدور.

فلا مانع أن يتكلم أحد -بعلم- في أمور عدّها الكثيرون من المسلمات، ولكنَّه يتكلم؛ ليعرف الحق، لا ليثبت أنَّه على الحق.

وأمَّا الموقف الثالث، فهو عبارةٌ عن نقاش دار بين النبي ﷺ وبين مجموعةٍ من الشباب المتحمسين، الذين يثورون على الخبرات، ويظنها بعضهم تخاذلًا، ولست أقصد بهذه الكلمات الصحابة الكرام الذين ناقشوا النبي ﷺ في تلك القضية، ولكن أحببتُ أن أنوّه على صنف من الشباب لا يخلو منه زمان ولا مكان.

هذا النقاش دار قبيل غزوة أحد، لما سمع النبي ﷺ بقدوم قريشٍ بعدةٍ وعتادٍ يقصدون غزو المدينة، والثأر لقتلاهم في غزوة بدر!

فجمع النبي ﷺ مَن يُمكن حضوره من الصحابة حتى يستشيرهم في الخطة الحربية، وكان النقاش يدور حول إجابة سؤال واحد، وهو: أننتظرهم في المدينة حتى يصلوا إليها؟ فإن دخلوها علينا قاتلهم الرجال على الأرض، ورمتهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق البيوت، أم نخرج لمقابلتهم خارج المدينة؟

وكان الخيار الأول هو رأي النبي ﷺ، وهو رأي سلمي في المقام الأول، فربما جاء القرشيون إلى المدينة فرابهم دخولها خشية تكاثر أهل المدينة عليهم، وربما منعتهم نخوتهم من دخول البيوت، فيرجعون من حيث جاءوا، وعلى الصعيد الحربي فإنّها خطة تجبر اليهود والمنافقين على قتال المشركين، فمن لم يقاتل دفاعًا عن عقيدة قاتل دفاعًا عن نفسه وأهل بيته؛ خشية أن يلحقه الخزي والعار.

إلا أنَّ هذا الرأي لم يستسغه المتحمسون من الشباب، ورأوا أنَّ الخروج إليهم هو الحل الأمثل حتى لا يظنّ أحدٌ منهم أنَّهم جبنوا عن القتال، وحتى يعلم القرشيون مدى شجاعة خصمهم.

ولقد حاول النبي ﷺ أن يقنعهم برأيه، وأنَّ المسالمة حتى النهاية خير وأبقى، إلا أنَّه رأى في وجوههم التمسك بالرأي، والإصرار عليه؛ وذلك لأنَّهم حكموا شعورهم وعواطفهم، ولم يحكموا عقولهم، فوافقهم النبي ﷺ ودخل ولبس لباس الحرب، وأعدَّ

عدته للقتال، ثم خرج عليهم، فلما رآه هؤلاء الشباب الكرام -الذين أخذتهم الحمية لأجل الدين- عرفوا كراهة ذلك في وجهه، فقالوا: لعلنا أكرهنا رسول الله ﷺ، فذهبوا إليه ليخبروه برجوعهم عن رأيهم لرأيه، ولكن ذلك أيضًا لم يكن عن قناعة عقلية، ولكن عن شعور صادق، وهو (الحب) إلا أنَّ رسول الله ﷺ رفض الرجوع؛ ليعلمهم أنّ مثل هذه المواقف لا مجال فيها للمشاعر، ثم قال لهم: «الآنَ ليس لنبيٍّ إذا لبِس لَأْمَتَه أن يضَعَها حتى يُقاتِلَ»[1].

أي: ما كان لنبي إذا لبس عدة القتال أن يخلعها عنه حتى يقاتل، أو يصرف الله عنه عدوه، وخرج معهم لملاقاة المشركين خارج المدينة؛ ليعلمهم أمرًا مهمًا، وهو «لَا شِقَاقَ بَعْدَ اتِّفَاقٍ».

بقي أمرٌ مهم، وهو عدم إجبار النبي ﷺ أحدًا على رأيه، ولو كان أقرب النّاس إليه، بل كان يضع رأيه في أقرب مسافةٍ من رأي صاحبه، ثم بعد ذلك يتركه وقناعته ما لم تكن إثمًا، أو تجلب ضررًا على أحد، وهذا ما حدث يوم توقيع وثيقة الصلح بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية، فقد كان النبي ﷺ يمليها بحضرة قريش، وسيدنا علي -كرم الله وجهه- يكتبها، وذلك دليل وأي دليل على يقين القرشيين الكامل أنّ رسول الله ﷺ هو أفصحهم لسانًا، وأعذبهم منطقًا، وأولاهم بالكلام عند الاجتماع!

---

[1] الخبر بطوله رواه عبد الرزاق في مصنفه (9735)، وأحمد في مسنده (14787)، والدارمي في سننه (2205). واللأمة: هي الدرع الحصينة، وسائر أداة الحرب من السلاح كالسيف والرمح.

فبدأ الوثيقة بقوله: «هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله قريشًا..» فقال سهيل بن عمرو: لو علمناك رسول الله ما قاتلناك! امح رسول الله.

فقال النبي ﷺ: يا علي! امح رسول الله.

قال: لا والله لا أمحوك أبدًا.

فبرَّ النبي ﷺ بيمينه، ولم يكرر عليه الأمر، ولا ناقشه، فهو موقف لا يحتمل المناقشة، ولكنّه أعفاه من أي عملٍ لا تطيقه نفسه، وقال له: يا علي! أشر لي عليها؛ لأنّ النبي ﷺ كانَ أميًا، فأشار له عليها، فمحاها النبي ﷺ بيده الشريفة!

ولك أيضًا أن تأخذ العبرة من موقفه من سهيل بن عمرو، فالنبي ﷺ لم يناقشه، ولا أحدث اختلافًا بعد اتفاق، ولا أصرّ على رأيه، ولم يفتعل مشكلة على قضية ليست من بنود الصلح من الأساس.

ومن الجدير بالذكر أنّ النبي ﷺ لم ينظر لأي شخصٍ خالفه في الرأي نظرة ازدراء واحتقارٍ مهما كان هذا المخالف ضعيف الرأي، بل يسمعه حتى ينتهي من عرض رأيه، ثم يتكلم حضرته دون تعريض برأي المخالف.

وما كان اختلاف الرأي دافعًا أبدًا لإفساد الود والإخاء بينه وبين أحد، ولله در القائل: «الاختلافُ في الرَّأيِ لا يُفسِدُ للوُدِّ قضيَّةً».

الفصل السابع (العلاقة مع العدو)

لم يكن النبي ﷺ يبدأ أحدًا بالعداوة، إلا إن استعداه أحد -أي: اتخذه عدوًا- فإن حدث ذلك فلم يكن من النبي ﷺ إلا دفع العداوة بأمثل طرق الدفع وأسلمها، والمتتبع سيرة حضرته يؤمن بذلك تمام الإيمان، فكم مرة أهدر دم من يستحق الإهدار، فلما جاء إليه معتذرًا عفا عنه ككعب بن زهير؟!

وكان النبي ﷺ دائمًا ما يحذِّر من الفجور في الخصومة، ويعد هذه الصفة خصلة من خصال المنافقين، وكذلك كان حاله ﷺ، بل كان دائمًا ما يسعى لتجفيف منابع العداوة بينه وبين أعداءه، ويعمل على وأد أسبابها، إلا أنَّ مشكلة العدو كانت مع الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ ولم تكن مع شخصه الكريم، فشخصية النبي ﷺ لم تكن شخصية عدائية قط، ولم تجلب العداوة يومًا من الأيام.

فقد روي أنَّ سادة قريش جاءوا إلى عمه أبي طالب؛ ليعرضوا عليه تلبية ما يطلبه ويريده بغية أن يترك النبي هذه الدعوة، أو أن يسلمه أبو طالب لهم ليروا فيه رأيهم، فقال له عمه: إنَّ أعمامك جاءوا يعرضون عليك كذا وكذا فأجبهم ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فعرض عليهم أن يقولوا كلمة واحدة ألا وهي: «لا إله إلا الله»، فقالوا: لو طلب منا عشر كلماتٍ غيرها أعطيناه، فقال النبي ﷺ: «يا عَمِّ! واللَّهِ لو وضَعُوا الشمسَ في يَميني، و القَمَرَ في

يَسارِي، على أنْ أترُكَ هذا الأَمرَ ما تَركْتُهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أوْ أهلِكَ دونَه».[1]

فليس من العقل أبدًا أن أتنازل عن ثوابتي حتى يرضى عني جميع الناس، ولن يرضوا.

والتعامل مع العدو ثقافة يجب على الجميع أن يتعلمها، ثقافة تستهدف حصر عداوة العدو في قضية معينة، لا تعميمها في جميع شئون الحياة، وألا تتخطى الشخص الذي عاداني، بمعنى: لا أعادي أهله وأقاربه لأجل عداوتي له، أو عداوته لي، وأن أترك مسافةً للصلح بيني وبينه يومًا ما...

هذه كانت ثقافة النبي ﷺ مع أي أحدٍ يظهر له العداوة أو يخفيها، فكان يحصر العدو في قضية معينة لا في جميع شئون الحياة، فقد عاش مع اليهود فترة في المدينة وهم ألدّ أعدائه – يبيع لهم، ويشتري منهم، ومن قبلها مع مشركي مكة، كذلك لم يكن يعادي أحدًا من أجل أحد، فقد تزوج السيدة سودة بنت زمعة وأبوها كان من ألدّ أعدائه، وتزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان وأبوها زعيم عصابة المشركين يومئذ، وكان يسالم أعداءه لأبعد الحدود كما مرّ بنا في فصلٍ سابق.

وحسبك من هذا الفصل شهادة أعدائه له بالصدق، والأمانة، والفضل رغم عداوتهم له، ولا أدلّ على ذلك من قول أبي سفيان

---

[1] الخبر أورده ابن هشام في السيرة 240/1، والطبري في تاريخه 326/2، والبيهقي في دلائل النبوة 187/2.

بن حرب لما سمع بزواج النبي ﷺ من ابنته أم حبيبة، قال: نعم الفحل، لا يُقدع أنفه. أي: نعمت النسبة والمصاهرة، ونعم الرجل والزوج.

الباب الثالث

(التَّعَامُلُ مَعَ المُسْتَجَدَّاتِ)

المستجدات: هي الأمور التي لم تكن فكانت، وأقصد بها هنا: الأمور الطارئة التي تتطلب حلًا سريعًا، (ولا مشاحة في الاصطلاح).

وهي نوعان يستحقان المناقشة: إما تحديات، وإما مشاكل.

فالتحديات: هي الأمور التي تقف حائلًا بين الإنسان وبين ما يريد.

وأما المشاكل فأقصد بها: العقبات التي يفتعلها الإنسان بمحض إرادته أو تفتعل له.

والنبي ﷺ قد واجهته المشاكل الشخصية التي تخصه وأسرته، والمشاكل الاجتماعية التي تلتهم ما يحيط به خارج هذا الإطار.

وواجهته أيضًا تحديات وقفت حائلًا بينه وبين تبليغ رسالته، وبناء دولته، وقد تعامل النبي ﷺ مع هذه الأمور بحكمةٍ نفتقدها في مثل هذه الأيام، حكمة شهد بها العدو قبل الصديق، حكمة دفعت أحد المستشرقين، وهو (برنارد شو) أن يقول: «لو كان محمد بن عبد الله حيًا لحل مشاكل العالم وهو يشرب فنجانًا من القهوة» أي: في دقائق معدودات.

فالنبي ﷺ قد يؤخر حل المشكلة؛ لأنَّ التأخير جزء من حلها، لا لأنّ الحل قد استعصى عليه، فكم من قضية بتَّ فيها بمجرد سماعها؟ وقد أخبرنا أنّ قضاءه كان بعقله وفطنته -في أغلب الأحيان- لا بوحي من السماء، وإنّما كان الوحي يأتي بالتأييد

والمباركة، فقد قال ﷺ: «إنَّما أنا بَشَرٌ وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأقْضِي علَى نَحْوِ ما أسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».[1]

أي: لا يكن أحدكم ظالمًا أخاه، وقد آتاه الله الفصاحة، فيأتي إليّ فيغلب صاحبه في الحجة، فليعلم ذلك الشخص أنني لو قضيت له، وأعطيت له من مال أخيه، فإنما أعطيه قطعة من النار.

والآن فلنتعرف إلى النبي ﷺ في الشدة كما تعرفنا إليه في الرخاء.

[1] رواه البخاري في صحيحه (7169)، ومسلم في صحيحه (1713) عَنْ أُمِّ سَلَمَة (رضي الله عنها).

الفصل الأول (مُوَاجَهَةُ التَّحَدِّيَاتِ وَالعَقَبَات)

نستطيع القول: إنَّ حياة النبي ﷺ كانت عبارة عن تحدٍ كبير.

ولك أن تتأمل قول حضرته: «واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ».[1]

وفي كل تحدٍ جديد كانت تظهر مهارة النبي ﷺ في تذليل العقبات بشتى طرق التذليل، بالتعامل المباشر، أو غير المباشر، بالتعامل العاجل أو الآجل، بالتعامل الظاهر، أو الخفي، كل هذه طرق تعامل بها النبي ﷺ مع ما واجهه من العقبات والتحديات.

فمن التعامل المباشر تعامله مع عقبة العصبية القبلية والتي من شأنها أن تحول بينه وبين بناء الدولة الإسلامية الحديثة، وإن تم بناؤها فستحول هذه العقبة دون استمرارها، كما حدث بعد ذلك بالفعل، إلا النبي ﷺ علِمَ موطن الداء فأعدّ له الدواء، فكان يذكر -بنفسه- لكل قبيلة فخرها وشرفها، ثم بعد ذلك يحثهم على ترك العصبية ويقول لهم: «دَعُوهَا فَإنَّها مُنتِنَة»[2]، ثم يؤاخي بينهم؛ يؤاخي بين رجل أوسي وآخر خزرجي، ويؤاخي بين رجلٍ

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (3612)، وأحمد في مسنده (21057).

[2] رواه البخاري في صحيحه (4622)، ومسلم في صحيحه (2584) عن جَابِرِ بْنِ عَبْد الله (رضي الله عنه).

أنصاري وآخر مهاجري، ويؤاخي بين رجل عربي وآخر أعجمي، ويؤاخي بين مولى وسيد قبيلة، بل وزوّجهم من بعضهم حتى ذابت الفوارق بينهم، وأصبحوا يؤثرون بعضهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأي مجتمع خير من هذا المجتمع؟! وأي دولة يمكن أن تُبنى تُضاهي هذه الدولة؟!

إنَّ الحضارة الحقيقية هي بناء الإنسان لا بناء الأسقف والجدران، هذا المجتمع لم يستطع أحدٌ أن يثير فيه الفتن بين أبنائه إلا إذا توارى بالحجاب، وإلا من وراء جُدُر، وهو تحدٍ جديد في ثوبٍ جديد لم يكن بمكة، ألا وهو تحدي «النفاق»، وهو من التحديات التي واجهها النبي ﷺ بطريقة غير مباشرة، مع علمه بهؤلاء المنافقين، وإخباره سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) بأسمائهم، إلا أنّه كان يتعامل معهم بطريقة التعريض «ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا» ولم يحكم عليهم بإهدار دمهم والخلاص منهم، رغم أنّ هذا هو الجزاء العادل لكل من يخون دولته ويفشي سرها للعدو، وكان ينهى أصحابه أن يقدموا على ذلك، كما نهى سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول أن يقتل والده رأس المنافقين، وقال له: «حتى لا يقال: إنَّ محمدًا يقتُلُ أصحَابَه»[1].

فالقتل حل لمشكلة إثارة الفتن في المجتمع أحيانًا، ولكنه سيبعد الناس عن الدخول في هذا الدين، ومن ثم فلن يكتمل بناء الدولة،

---

[1] من الحديث السابق الذي رواه البخاري في صحيحه (4622)، ومسلم في صحيحه (2584) عن جَابِرِ بْنِ عَبْد الله (رضي الله عنه).

وأيضًا قتلهم ربما أثار فتنًا قبلية في المدينة المنورة، فكانت الطريقة غير المباشرة هي أمثل حل، وأقوم طريق، فما لبثوا إلا قليلًا حتى نُكسوا على رؤوسهم، فمنهم من مات، ومنهم من قُتل، ومنهم من هداه الله فتاب الله عليه.

ومن التحديات أيضًا: تحدي توسيع رقعة الدولة، وتأمين حدودها، وذلك قد يكون بالقوة! ولكن النبي ﷺ لم يكن يعامل الناس إلا على أساس العقيدة الراسخة، واليقين الكامل، فآثر أن يقنعهم بدينه أولًا، أو على الأقل يعرفهم مبادئه حتى يسالموه، فكان يرسل السفراء والرسل أولًا؛ ليعلموا الناس مبادئ هذا الدين، كما أرسل سيدنا مصعب بن عمير (رضي الله عنه) إلى المدينة المنورة قبل الهجرة، فكان سببًا في إسلام من أسلم منها، وأرسل سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) إلى اليمن كذلك، وكان يحسن اختيار سفرائه، ويعلمهم كيف يعاملون الناس، ويوجههم إلى الطريقة المثلى في المعاملة، ويعلمهم أنَّ دراسة المجتمع الذي سينتقلون إليه خير وسيلة لمعرفة أقصر طريق لاستمالتهم، ولا أدلّ على ذلك من وصيته الجامعة لسيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) مبعوثه إلى اليمن، والتي جاء في أولها: «يا معاذ! إنَّك تأتي قَومًا أَهْلَ كِتَاب...»[1] وفي هذه الكلمات من اختصار الطريق ما فيها، فعرّفه بحالهم قبل أن يوجهه إلى طريقة دعوتهم.

---

[1] الحديث بطوله رواه أحمد في مسنده (2071)، والدارمي في مسنده (1638)، وابن ماجه في سننه (1783)، وأبو داود في سننه (1584)، والترمذي في سننه (625).

وفي مواجهة هذا التحدي اختار النبي ﷺ السلمية أيضًا، وقت أن كانت القوة هي لغة التفاهم بين القبائل والدول!

وهكذا تعامل النبي ﷺ مع العقبات والتحديات التي واجهته بل وواجهت غيره بعقلية فريدة لم تكن متوفرة في هذا العصر، ويكأنّه ينظر إلى المستقبل من ستر رقيق، فتراه يزيح العقبات، ويكسر التحديات بطريقة لم تكن لأعدائه في حسبان، الأمر الذي دفع أصحابه بل جميع من حوله أن يستعينوا برأيه في مواجهة كل تحديات الحياة.

وكان يصدقهم النصيحة، فيخبرهم بنقاط قوتهم وضعفهم، ومدى قدرتهم على مواجهة ذلك التحدي وتخطي هذه العقبة، وكفى بنصيحته لسيدنا أبي ذر شاهدًا ودليلًا، حينما سأله سيدنا أبو ذر الإمارة، فقال: أمِّرني يا رسول الله.

فقال له النبي ﷺ: «يا أبا ذرٍّ إنِّي أراكَ ضعيفًا، وإنِّي أحبُّ لَكَ ما أحبُّ لنَفسي فلا تأَمَّرنَّ على اثنينِ ولا تَولَّينَّ مالَ يتيمٍ».[1]

[1] رواه مسلم (1826)، وأبو داود (2868) واللفظ له، والنسائي (3667)، وأحمد (21563) عن أبي ذر الغفاري.

الفصل الثاني (التَّعَامُلُ مَعَ المَشَاكِلِ الطَّارِئَة)

لا تخلو حياة الإنسان من المشاكل الشخصة والاجتماعية، والحكيم من يخرج من المشكلة بمكاسب، ولا يصنع من المشكلة مشاكل متعددة.

وطريقة التعامل مع المشاكل من أكبر الأدلة على شخصية الإنسان، وعلى ذكائه، وسرعة بديهته، وأيضًا هي بيان لشخصيته من حيث العدائية والسلمية، والنبي ﷺ كأي إنسانٍ قد تعرض في حياته لكثيرٍ من المشاكل المستعصية والطارئة أيضًا، فتعامل معها بعقلٍ وإنسانية في آنٍ واحد، ووضع لها حلولًا كانت موضع الإعجاب ومثار الدهشة، إذ غالب حلول الحكام والأمراء عبارة عن أوامر واستخدام للقوة والبطش إذا ما استعصت المشكلة عليهم، لذلك تجد الحاكم الحكيم الحليم يتخذه الناس قدوة ومثلًا يُضرب، وقصة ترويها الأجيال عبر القرون.

وسأسلك في هذا الفصل مسلكًا مختلفًا -قليلًا- عن باقي الفصول، فلن أذكر القاعدة العامة التي قعَّدها النبي ﷺ ليبني عليها حلول المشكلات، ولكنني سأسرد بعض الأحداث، وكيفية التعامل المحمدي معها، وأشير إلى ما فهمته منها، وأفتحُ للقارئ الكريم نافذة ينظر منها ليستنبط هو الآخر بعضًا من قواعد التعامل مع المستجدات، فأقول:

من المعروف أنّ أشدّ ما يمكن أن يتعرض له الإنسان أن يطعن الناس في عرضه، وأن يتكلموا في محارمه؛ خاصةً إذا كان من أهل الصلاح، والأدب، والسيرة الحسنة بين النَّاس، وكان أهله المطعون فيهم مضرب الأمثال في العفة والطهارة، وأشدَّ من ذلك أن يكون هذا الطاعن صديقه وصاحبه!

مشكلة عويصة تعرض لها النبي ﷺ لما رمى المرجفون في المدينة زوجته الطاهرة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنها) بالفاحشة، واتهموها مع رجل كان يُضرب به المثل في الأدب والأخلاق وهو «صفوان بن معطل»، وقد صدَّق هؤلاء المرجفين جماعةٌ من الصحابة رجالًا ونساءً، وكان من هؤلاء شاعر الرسول الذي ما عُرف عنه إلا الحب والتقدير والاحترام لسيدنا النبي ﷺ والدفاع عنه بالقول والفعل!

وأصبح النبي ﷺ في موقفٍ لا يُحسد عليه، ماذا عساه أن يفعل؟ يكذّب أصحابه ويعاديهم وهم من هم في الصدق والنصرة والحب له؟! أم يصدق ما يقال في زوجته الطاهرة النقية التي يعلم فضلها على سائر النساء؟!

ثم هل ستشغله هذه القضية عن أداء الرسالة، والصلح بين الناس، وحل مشاكلهم؟!

كان بإمكان النبي ﷺ أن يطلقها، وأن يتزوج غيرها، ولكن في هذا الأمر من الظلم ما فيه، فإنّ التهمة ستثبت عليها ولو جاءت بملء الأرض قسمًا وأيمانًا!

ولقائلٍ أن يقول: لماذا لم يخرج النبي ﷺ على الملأ لينفي عنها هذه التهمة ما دام يعلم براءتها ولا يشك فيها؟!

والجواب أنّ ذلك حدث بالفعل، وخطب النبي ﷺ بالناس، وأخبرهم بثقته في زوجته، ونهاهم عن الخوض في مثل هذه الأمور، إلا أنَّ كثيرًا من الناس كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ في هذه القضية على أنه زوج يدافع عن زوجته، وليس نبيًا يدفع الظلم عن المظلوم من أمته!

فما كفّ المتبوع -المنافقون، ولا اقتنع التابع- من سار على نهجهم في هذه القضية، واستمرّ الناس في جهلهم، وسار الكلام في المدينة كالنار في الهشيم، فأصبح همّ النبي ﷺ أن يعزل زوجته عن هذه العاصفة حتى لا تعرف ما يقال عنها، ولا تسمع ما يتطاير في الهواء ماسًّا سمعتها وشرفها، فلم يكتف بعدم إخبارها، ولكنه ذهب بها إلى بيت أهلها؛ لأنّ بيت النبي ﷺ كان بجوار المسجد يأتيه أهل المدينة من كل حدب وصوب، وحجرة السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت قريبة من المسجد بحيث تسمع كل ما يقال على المنبر، ومن الممكن أن تسمع إنكار النبي ﷺ هذا الأمر يومًا، أو دفاعه المتكرر عنها على المنبر، فضلًا عن أن تسمع من يتسارر بهذا الأمر داخل المسجد أو خارجه، فكان لا بدَّ أن تبتعد عن هذا الموقع صيانةً لها وحفظًا لمشاعرها.

وقد تمّ للنبي ﷺ ما أراد، فقد مكثت في بيت أبيها شهرًا كاملًا لم تسمع ما يقال عنها، وقد حاول النبي ﷺ بكل الطرق أن يخرس

ألسنة هؤلاء المتكلمين إلا أنَّ المنافقين لم يكونوا ليتركوا فرصتهم؛ لإشغال النبي ﷺ بنفسه وببيته عن دعوته ورسالته، ولم يكن النبي ﷺ ليتردد بين إتمام رسالته، وبين الإبقاء على زوجته، فلأجل رسالته وعقيدته يبذل الغالي والنفيس، فاستشار أصحابه في أمر السيدة عائشة (رضي الله عنها) أيبقي عليها وينشغل بها وبأمرها عن الدعوة وتوسيع الرقعة الإسلامية ما شاء الله أن ينشغل؟! أم يطلقها ويتفرغ لما وهب حياته لأجله؟!

فأشار عليه بعضهم أن يبقي عليها؛ لأنَّه قرأ من بين سطور الأحدث أنَّ صوت الفتنة بدأ يتخافت، ومنهم من أشار عليه أن يطلقها؛ حتى لا يكون هذا الأمر بابًا يفتحه كل من أراد أن يؤذي النبي ﷺ في أي وقتٍ وفي أي لحظة.

إلا أنَّ النبي ﷺ كان متمسكًا بزوجته لأبعد الحدود، وكان يزورها في بيت أبيها بين الحين والآخر؛ ليكتشف في يومٍ من الأيام أنَّها قد عرفت ما يقال عنها، وقد وجدت في نفسها وحزنت أشدَّ الحزن؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يخبرها، وظنَّت أنَّ ذلك إنّما هو شكٌ من حضرته فيها، والحقيقة أنَّ هذا الحزن هو السبب الرئيس في عدم إخبار النبي ﷺ لها، وذهابه بها لبيت أبيها.

فلو ردّها إلى بيته لأصبح هذا الحديث معه حديث كل صباح ومساء، ولشوَّشت عليه اهتمامه بأمر دعوته، ودولته، ورعيته، فتركها فترةً حتى يقضي الله القضاء العادل في هذه القضية، ولم يكن النبي ﷺ ينتظر براءتها، فهو لم يشك في ذلك لحظة، ولكنّه

كان ينتظر هدوء هذه العاصفة، ونسيان الأمر، وإظهار الله براءتها لأجل الناس، لا لأجل حضرته ﷺ «وقد كان ذلك» فبرأها الله، وأصبح الخوض في هذا الأمر أمرًا يوجب الحدّ على الخائض فيه حينها.

فتأمّل كيف حل النبي ﷺ هذه المشكلة دون أن يخسر طرفًا من الأطراف، أو يخسره طرف من الأطراف؟ وكيف فضل الصبر على الأذى -وأي أذى- على أن يحل المشكلة حلًا يكسر نفوسهم كسرًا، لا تجبره الليالي والأيام.

وأي حكمٍ من النبي ﷺ على الخائضين في هذا الأمر سيدفع المنافقين للتقول على حضرته ما لم يكن فيه أبدًا، والنبي ﷺ كان يبعد نفسه عن مواطن الشبهات، ولا يترك للشيطان مجالًا أن يوسوس لأحدٍ في أخلاق حضرته.

ولعلك -أيّها القارئ الكريم- قد قرأت قصة مرور رجلين عليه في المسجد ليلًا، وكانت معه السيدة صفية بنت حيي، فلما جاوزاه دعاهما، وقال لهما: على رسلكما إنّها صفية! حتى لا يظنّا به الظنون، فاستغربا فعل النبي ﷺ وقالا: سبحان الله يا رسول الله!

ليقول لهم النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُما سُوءًا، أَوْ قالَ: شيئًا».[1]

من أجل ذلك عالج النبي ﷺ هذه المشكلة بإبعاد طرفيها عن بعضهما، ومحاولة حل المشكلة مع كل طرفٍ على حدة، حتى لا

[1] رواه البخاري في صحيحه (3281)، ومسلم في صحيحه (2174) عن أنس

يلومه أحد إن طلقها عند صدقهم، أو أقام عليهم الحد عند براءتها؛ وهذا ما حدث بالفعل.

هذا مثال لتعامل النبي ﷺ مع المشاكل الشخصية التي تخصه وآل بيته، وكيف تعامل معها رغم انشغاله -حتى عن نفسه- برسالته وعقيدته؟

فقد رُوي أَنَّه ﷺ دخل على ابنته فاطمة يومًا، فقالت له: يا أبتِ! وا رأساه! فشكت إليه صُداعًا برأسها يبدو أنّ له مدة ولا يزال في شدة وزيادة! فقال لها: وأنا والله يا فاطمة وا رأساه!

وكأنّها ذكرته بهذا الألم الذي نسيه بسبب انشغاله مع النَّاس وتعليمهم، وقضاء حوائجهم، وحل مشاكلهم.

وهذا مثال أيضًا يبين لنا أنّ النبي ﷺ يحل المشكلة من جذورها، ولا يتركها لتتمدد بعوامل المواقف والأيام، ولم تكن المشكلة عنده لتأخذ أكبر من حجمها، أو تأخذ شكلًا آخر، بأن تكون مشكلة شخصيةً، فيحولها إلى مشكلة اجتماعية، ولم يكن من الذين يتعاملون مع المشاكل بالمسكنات والمهدئات، وإنّما كانت حلولًا جذرية، كافيةً شافيةً، حتى وإن كان الدواء بطيء المفعول.

ولم يكن علاج النبي ﷺ للمشاكل الاجتماعية أقلّ حكمة من علاج المشاكل الشخصية، فالنبي ﷺ لو لم يكن نبيًّا، فهو رئيس دولة، ولو لم تكن دولة، فهو مصلح اجتماعي، يفزع النّاس إليه في الملمات، ويستودعونه أسرارهم، ويستعدونه على مشاكلهم؛ لما يرون من حكمته وبصيرته النافذة، ورأيه السديد، الذي دائمًا ما يُبنى

على بُعد نظر، وسلامة صدر، ولم يكن يمر يومٌ دون أن يعالج النبي ﷺ مشكلةً، ومثنى وثلاث، ورباع، منها ما يبتّ فيه بتًّا، ومنها ما يترك فيه لعامل الوقت مجالًا لحل المشكلة.

ومن المشاكل الاجتماعية العويصة، التي عرضت للنبي ﷺ مشكلة الرقّ، وهي عبودية البشر للبشر، وهي مشكلة لم تكن عربية فقط، ولكن كانت مشكلة عالمية، العالم كله واقعٌ في شراكها.

ولمن لا يعرف: فهذه المشكلة عبارة عن استعباد البشر للبشر نتيجة الحروب والعدائيات، فالقبيلة إذا انتصرت على أختها، والبلدة إذا انتصرت على أختها، والدولة إذا انتصرت على أختها، وأوقعت برجالها ونسائها في الأسر، أصبح الأسير مِلكًا لمن أسره، وعليه خدمته ما دام عنده، ويبيعه إذا أراد بيعه.

لم تكن المشكلة لتحل بالأمر المباشر أبدًا! فقليل من سيُفَرط في ثروته تنفيذًا للأمر، فسلك القرآن الكريم مسلكًا عظيمًا؛ لإنهاء هذه الظاهرة، وهي الترغيب في عتق العبيد من ذُلّ العبودية، وجعل العتق كفّارة لكثيرٍ من الذنوب.

وسلك النبي ﷺ مسلكًا تكميليًّا لمسلك القرآن الكريم، فمن الناس من يملك الكثير من العبيد، لكنه لم يرتكب ذنبًا كفارته العتق، وسلك في أغلب طرق الخير، وليس بحاجة أن يسلك طريق العتق.

فكيف يستطيع النبي ﷺ أن ينهي هذه الظاهرة مع وجود مثل هذا الشخص في المجتمع؟!

فسلك النبي ﷺ طريق إيقاظ الضمير الإنسانيّ فيهم، بأن يُشعرهم أنّ هذه روح إنسان لها حقوق، كما أنَّ عليها واجبات، ففرض حقوقًا للعبيد على ساداتهم، وحدّ لهم حدودًا في التعامل قد لا يتحملها السيد أمام المجتمع.

فأوصى النبي ﷺ: مَن كان أخُوه تحت يَدِه فلْيُطعِمْه ممَّا يَأكُلُ، ويُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ![1] وهذا أمرٌ شديد على النفوس، قد يضيق به كثير من السادة ذرعًا، فكيف له أن يلقى النَّاس وعليه ما على خادمه من اللباس؟! حتى أنَّ من لا يعرفه قد لا يستطيع أن يميز بين السيد والعبد منهما.

ونهى النبي ﷺ السيّد أن يقول لعبده: يا عبد! وإذا أراد أن يناديه فليقل: يا غلام، أو يا جارية! وإذا سأله سائل: مَنْ هذا؟ فلا يقل: عبدي، وإنما يقول: غلامي.

وأمره أن يُحسن معاملته، ولا يكلفه من الأمر ما لا يُطيق، وإذا فعل ذلك فليعنه على ما كلفه، وليرفق به، وما ذلك إلا لتضييق الخناق على السادة، وإشعارهم أنَّ في العتق راحة من تلك التكاليف، وإلا فلينظر إلى هذا العبد نظرة الرحمة، والإنسانية، والأخوة.

كما قال النبي ﷺ: «إخوانُكم خَوَلُكم، فمَن كان أخُوه تحت يَدِه فلْيُطعِمْه ممَّا يَأكُلُ، ويُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ»[2]، ولا يضره ولا يؤذيه،

---

[1] رواه الدارمي في سننه (2563)، وابن ماجه في سننه (2153)، والبيهقي في شعب الإيمان(10700) عن عمر.

[2] من الحديث السابق.

وكأنَّه يتعامل مع أجير -خادم بأجرة- وأجرة الخادم طعامه، وكسوته، وتزويجه، والإنفاق عليه.

واعلم أنَّ إنهاء مشكلة الرق بتحريمه مرةً واحدة، قد يوقع أضرارًا على بعض العبيد، وعلى المجتمع أيضًا.

فكثير من هؤلاء العبيد ترك أهله وأصحابه، وليس له أي علاقات في مجتمعه، وقد يؤسَر صغيرًا، فلا يتذكر أحدًا من أهله، ولا موطنه، وإذا أُعتق فإنَّه سيشعر بالغربة في بلاد لا يعرف فيها شيئًا، وقد يكون متزوجًا فيصعب عليه توفير السكن والطعام واللبس، وإيجاد العمل.

وأما ضرره على المجتمع، فإنه عبارة عن تسريح آلاف، بل ملايين البشر والزج بهم في الشوارع بلا مأوى، ولا عمل، ولا مصدر رزق، فكان هذا الأمر سيتسبب في كارثةٍ إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من المعاني القاسية.

فكان التدرج في الأمر أسلم الحلول، وأصوبها، وهو الذي أثبت فاعليته.

وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الترغيب في العتق، واستخدم النبي ﷺ الأسلوب التكميلي: وهو تضييق الخناق على العبودية حتى يرى النّاس أنَّ في العتق راحة للنفس والعقل.

وها نحن بعد أكثر من ألفٍ وأربعمائة عام من البعثة؛ لا نكاد نرى رقيقًا في أي مجتمعٍ من المجتمعات الإسلامية على اتساع رقعتها.

فتأمل كيف استطاع النبي ﷺ حل مشكلة عالمية، وعلاج ظاهرة كبرى، ولك أن تتأمل أيضًا: كيف استطاع النبي ﷺ أن يحل مشكلاتٍ كبرى كادت أن تفتك بالمجتمع، كمشكلة البغاء (الزنا)، وظلم المرأة، والعصبية القبلية، والتفاخر بالأحساب وانتصارات المعارك، والحروب المستمرة، والأنا المزروعة في غالب المجتمع، والأمية التي غطَّت على المجتمع كله، إلا قليلًا من القُرّاء والكُتاب، وكذلك الغش في التجارة، فقد كان ﷺ يذهب إلى السوق بنفسه؛ ليتفقد ما صلاحية السلع المعروضة للبيع والتجارة، فيجد بائعًا قد نزل المطر على الحبوب التي يتاجر فيها، ولم يبين ذلك للمشتري فنظر إليه النبي ﷺ وقال بعد محادثة دارت بينهما: «مَن غَشَّنا فليسَ مِنَّا»[1].

وكذلك مشكلة المجاعات، فقد عالجها بالتقشف والتكافل الاجتماعي، ومشكلة الطواعين فقد عالجها بالحَجر الصحي حتى لا تتفشى، ومشكلة انقراض الحيوانات فقد عالجها بتجريم الصيد في بعض المناطق كمكة والمدينة، وقد أوحى ذلك إلى البشر فكرة «المحميات الطبيعية»، وكذلك مشكلة الاحتكار، فقد عالجها بتضييق الخناق على المحتكرين، فأوصى الناس بعدم التعامل معهم، فقال: «الجالبُ مرزوقٌ والمحتكِرُ ملعونٌ»[2].

---

[1] الحديث رواه مسلم في صحيحه (101) عن أبي هريرة. والحادث رواه ابن أبي شيبة في مسنده (721) عَنْ أَبِي الْحَمْرَاءِ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ عِنْدَهُ طَعَامٌ فِي وِعَاءٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَقَالَ: «غَشَشْتَهُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

[2] رواه الدارمي في سننه (2563)، وابن ماجه في سننه (2153)، والبيهقي في شعب الإيمان(10700) عن عمر.

وهكذا ترى النبي ﷺ يعالج المشاكل الكبرى التي تفشت في المجتمعات وقتها، والتي منشؤها حب الذات وحب الدنيا، فقومها تقويمًا، وعالجها من جميع جوانبها ببعد نظرٍ، واقتلع جذورها، ولم يستعجل ثمرة العلاج، ولكنه كان يأخذ بالأسباب، ولم تكن تشغله مشكلة عن مشكلة، ولا استعصى عليه حل مشكلة، فأرَّقه طول الليل؛ لأنَّه يعلم أنَّه ما من داء إلا وله دواء؛ ولأنَّ قلبه معلق بخالقه، ويعلم ألا ملجأ من الله إلا إليه، فإذا فرضت المشكلة نفسها واستعصت على الحل فهذا ابتلاء من الله للمجتمع لينظر كيف يعملون، وعقاب بجرم أجرموه، وذنب اقترفوه، كما أخبرنا حضرة النبي ﷺ أنَّ الزنا إذا كثر في مجتمعٍ ابتلاه الله بالفقر، وهذا الفقر لا علاج له إلا الإقلاع عن هذه الجريمة، وإلا فهو واقع بهم في نفوسهم، وقلوبهم، وإن امتلأت أيديهم بالذهب والفضة.

وختامًا...

يقول الكاتب الانجليزي (برنارد شو) في كتابه (محمد):

«إنَّ العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنّه أقوى دينٍ على هضم جميع الديانات خالدًا خلود الأبد، وفي رأيي أنَّه لو تولى أمر العالم اليوم لوُفِّق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

الفصل الثالث (الوَصَايَا)

لم يكن النبي ﷺ حلالًا للمشاكل فحسب، ولكنّه كان مصلحًا اجتماعيًّا له سياسته في الحياة، وله فكره الخاص، وعنده الخطة الممنهجة لبناء المجتمع الفاضل المثالي الذي يتمنى أي إنسانٍ أن يعيش فيه.

وسأحاول سرد بعض وصايا النبي ﷺ لبناء الإنسان المثالي، والمجتمع الفاضل، وللقارئ الكريم أن يقرأ فكر النبي ﷺ في طريقة بناء هذا المجتمع، ويعرف جيدًا: أكان النبي ﷺ يبدأ من رأس الهرم؟! أم من قاعدة الهرم؟! وكم فرق هذا السؤال بين أخٍ وأخيه في الفكر والعلم والثقافة!

ولنرى الآن كيف نظر النبي ﷺ إلى بناء المجتمع الفاضل المثالي بدايةً من بناء الإنسان نفسه، وتعامله مع الآخرين وحتى تعامله مع جميع من حوله من الكائنات.

وفي الوصايا الأسرية...

اعتنى النبي ﷺ ببناء الأسرة اعتناءً كبيرًا؛ لأنها اللبنة الأولى لبناء المجتمع، وإذا عاش الإنسان حياةً أسرية سعيدة، فإنّ حياته الاجتماعية ستكون أسعد.

ولذلك جاءت التوصية بطريقة بنائها، قبل التوصية بطريقة سعادتها واستمرارها، فتراه يرغب الشباب في بناء الأسرة حتى لا

يخافوا من أعباء الحياة الأسرية، وتكاليفها، فيقول لهم: «يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ؛ فإنَّه له وِجَاءٌ»[1].

وحذّره أن يقع في شباك الشيطان، فيخاف من تكاليف الخطبة والزواج، فقال له: ثلاث حق على الله أن يعينهم، ومنهم طالب النكاح الذي يريد أن يعف نفسه.[2]

ثم بعد ذلك أوصاه بطريقة الاختيار، وأن يختار أمًّا طيبةً لأبنائه، فقال له: «تُنكَحُ المَرأةُ لأربعٍ: لمالِها، وحَسَبِها، ودِينِها، وجَمالِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداكَ»[3].

ثم حذره من الاغترار ببعض الصفات، فقال: «إياكم وخضراءَ الدِّمَنِ، قيل: وماذا يا رسولَ اللهِ؟ قال: المرأةُ الحسناءُ في المَنبِتِ السُّوءِ»[4].

ثم بعد ذلك أوصى أهلها بهذا الشاب الذي قصدهم بعد عناءٍ، وبحثٍ، ومشقّة، فقال لهم: «إذا أتاكُم من ترضَونَ دينَهُ وأمانتَهُ فزوِّجوهُ، إلَّا تفعلوا تَكُن فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ».[5]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (1905)، ومسلم في صحيحه (1400)

[2] روى ابن المبارك في مسنده (225)، والترمذي في سننه (1655)، والنسائي في سننه (3218)، والحاكم في المستدرك (2678) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌّ على اللَّهِ عونُهُم: المُجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ، والمُكاتِبُ الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الَّذي يريدُ العفافَ».

[3] رواه البخاري في صحيحه (4802)، ومسلم في صحيحه (1466) عن أبي هريرة.

[4] رواه القضاعي في مسند الشهاب (957) عنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي.

[5] رواه الترمذي في سننه (1085)، والطبراني في المعجم الكبير (762).

وأمرهم أن يعملوا برأيها فقال: «لا تُنكحُ البِكرُ حتى تُستَأْذَن»[1]، وبعد ذلك أوصاهم بهذا الشاب خيرًا، وأن يرفقوا به في مطالبهم، فقال: «أقلهنَّ مهرًا أكثرهُنَّ بركة»[2]، وبعد أن يتم هذا الزواج المبارك أوصى الزوج بزوجته خيرًا فقال: «خيرُكُم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكُم لأهلِي»[3]، وقال: «استوصُوا بالنِّسَاء خَيرًا»[4]، وأوصاه بالرفق بزوجته في كل الأمور، فقال: «رفْقًا بالقَوارِير»[5]، وأوصى الزوجة بزوجها أيضًا، فقال: «لو كنتُ آمِرًا أحدًا أن يسجُدَ لأحدٍ لَأمَرْتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزَوْجِها»[6] والسجود هنا: سجود تكريم لا سجود عبادة، كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، والسجود: لا يعني الأفضلية على الإطلاق.

وأوصاهما معًا بحسن العِشرة، وحفظ السر، فقال: «إنَّ مِن أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يومَ القِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إلى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا».[7]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (6567) عن أبي هريرة.

[2] رواه أحمد في مسنده (25119)، والنسائي في السنن الكبرى (9229) عن عائشة (رضي الله عنه).

[3] أخرجه ابن عساكر في كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين (109) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب (رضي الله عنه).

[4] رواه مسلم في صحيحه (1468) عن أبي هريرة.

[5] رواه مسلم في صحيحه (1468) عن أبي هريرة.

[6] رواه الدارمي في سننه (1505)، وأبو داود في سننه (2140)، والترمذي في سننه (1159) عَنْ أَبِي هُرَيْرَة.

[7] رواه أبو عوانة في مستخرجه (4299)، والبيهقي في السنن الكبرى (14213) عن أبي سعيد الخدري.

وبعد ذلك وجههما إلى تكثير النَّسل، وليس مرادًا بذاته وإنَّما هو دليل على اليقين في الله وعدم الخوف من ضيق المعيشة، وهو ردة فعل واجبةٍ من النبي ﷺ تجاه مجتمعٍ كان يقتل البنات خشية العار، ويقتل البنين خشية الفقر، فأخبرهم ﷺ أنّ البنات لا تجلب العار، وأنَّهنّ المؤنسات الغاليات، وأخبرهم أنَّ الأولاد لا تُفقر، وأنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فقال النبي ﷺ: «تَناكحوا تَناسلوا أُباهي بكم الأممَ يومَ القيامةِ».[1]

وإذا ما أكرمهم الله بالذرية، فليكرموا أولادهم، ويحسنوا إليهم، ويغرسوا فيهم القيم، فقال: «مرُوا صبيانَكُم بالصَّلاةِ إذا بلَغُوا سبعًا واضرِبُوهُم عليهَا إذا بلَغُوا عَشرًا وفرِّقُوا بينَهُم في المَضَاجعِ»[2]، وليسووا بينهم في العطف والحنان، ولا يفرقوا بينهم على أساس الذكورة والأنوثة، فقال: «ساوَوا بينَ أولادِكُم في العطيَّةِ ، فلَو كُنتُ مُفضِّلًا أحدًا لفضَّلتُ النِّساءَ»[3].

أمّا من الناحية الاجتماعية، فأوصى الإنسان أن يكون سليم الصدر في المعاملة، ويعامل الناس بحسن الظن، فقال: «سلامة الصدر لا تُبلغ بعمل»[4]، وأن يعامل الناس بالرفق واللين، فقال: «ما

[1] أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 173/6 عن سعيد بن أبي هلال مرسلًا. وأخرجه صاحب مسند الفردوس (2663). وأورده ابن كثير في تفسيره 51/6.

[2] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (3519)، وأحمد في مسنده (6689)، وأبو داود في سننه (495).

[3] رواه الحارث في بغية الباحث (454)، والبيهقي في السنن الكبرى (12126) عن ابن عباس.

[4] أورده ابن الحاج في المدخل إلى الفقه المالكي 61/1، 201/1.

كان الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانَه»[1]، وقال: «اللهُمَّ مَنْ ولِي من أمْرِ أُمَّتِي شيئًا فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ علَيهِ، ومَنْ ولِيَ من أمرِ أُمَّتِي شيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فارْفُقْ بِهِ»[2].

وأوصى الناس ألا يتجسس بعضهم على بعض، ولا يتدابروا، ولا يتناجشوا، ولا يبع أحدهم على بيع صاحبه، ولا يخطب على خطبته.

وألا يضع الإنسان نفسه في موضع شكٍّ فقال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ».[3]، وألا يجلس في مجلس يكره الناس منه ذلك، فقال: «إياكُم والجلوسَ في الطُّرقَات..»[4]، وألا يغش أحدًا، فقال: «مَن غَشَّنا فليسَ مِنَّا»[5]، وألا يحتقر الإنسان غيره، فقال: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرَينِ، مُصفَحٌ عن أبوابِ النَّاسِ، لو أقسمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ»[6]، وألا يحتقر المعروف الذي يقدمه للناس مهما كان صغيرًا، فقال: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[7] أي: بشوش مبتسم، وأن يستر غيره، فقال: «مَن

---

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد (365/ 469) 179، ومسلم في صحيحه (2594) عن عائشة (رضي الله عنها).

[2] واه مسلم في صحيحه (1828).

[3] رواه البخاري في صحيحه (3281)، ومسلم في صحيحه (2174) عن أنس.

[4] رواه البخاري في صحيحه (2333)، ومسلم في صحيحه (2121) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ.

[5] الحديث رواه مسلم في صحيحه (101) عن أبي هريرة.

[6] الحديث رواه مسلم في صحيحه (2622) عن أبي هريرة.

[7] الحديث رواه مسلم في صحيحه (2626) عن أبي ذر.

سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنيا والآخِرةِ»[1]، وأن يقضي حوائج الناس، فقال: «مَنْ مشَى فِي حَاجَةِ أَخِيه مشَى اللَّهُ في حَاجَتِه».[2]

وأوصى النبي ﷺ أيضًا بالعفو والإعراض عن الآخرين، فقال «ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[3].

وأوصى بالجار، فقال: «يا أبا ذَرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأَكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جِيرانَكَ»[4].

وأوصى بالضيف، فكان يطعم ضيفه بيده، ويقول: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».[5]

وأوصى بزيارة المريض حتى يستقوي بالنَّاس على مرضه، يقول البراء بن عازب (رضي الله عنه): أمرنا رسول الله ﷺ بعيادة المريض.[6]

---

[1] رواه أحمد في مسنده (16959) عن مسلمة بن مُخَلَّد.

[2] روى الخرائطي في مكارم الأخلاق (91)، والطبراني في الأوسط (4396) عَن ابْنِ عُمَرَ، وَأبي هُرَيْرَةَ قَالا: سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ حَتَّى يُتِمَّهَا أظَلَّهُ اللَّهُ بِخَمْسَةٍ وَسَبْعِين ألْفَ مَلَكٍ يَدْعُونَ لَهُ...»

[3] رواه البخاري في صحيحه (5763)، ومسلم في صحيحه (2609). والصرعة: التي تغلب الرجال وتصرعهم.

[4] الحديث رواه مسلم في صحيحه (2626) عن أبي ذر.

[5] رواه البخاري في صحيحه (5672)، ومسلم في صحيحه (47) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

[6] الخبر أخرجه البخاري في صحيحه (5175): «أَمَرَنَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَبْعٍ، ونَهَانَا عن سَبْعٍ: أَمَرَنَا بعِيَادَةِ المَرِيضِ، واتِّبَاعِ الجِنَازَةِ، وتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وإبْرَارِ القَسَمِ، ونَصْرِ المَظْلُومِ، وإفْشَاءِ السَّلَامِ، وإجَابَةِ الدَّاعِي، ونَهَانَا عن خَوَاتِيمِ الذَّهَبِ، وعَنْ آنِيَةِ الفِضَّةِ، وعَنِ المَيَاثِرِ، والقَسِّيَّةِ، والإسْتَبْرَقِ، والدِّيبَاجِ.»

ومن ذلك الكثير والكثير من الوصايا التي أصبحت أمثلة تُضرب في كل فضيلة، فالنبي ﷺ قد أسّس مجتمعًا فاضلًا مثاليًا بأخلاقه وصفاته السَّنيّة، ورسم الطريق لكلّ مَنْ يريد أن يعيش في مثل هذا المجتمع، بل رسم الطريق إلى الطريق، وطريقة الوصول إلى الطريق، وعبَّر عن ذلك بلسان إنسانيّته لا بلسان نبوته، حتى يستطيع بنو الإنسان أن يقتدوا به، ويمتثلوا أمره.

وإذا كانت هذه الوصايا في التعامل مع البشر وصايا مثالية، فإنَّها ليست بأكثر مثالية من الوصايا بالتعامل مع الكون المحيط بنا، فتجده يوصي بالحيوان قبل وجود المنظمات الحقوقية، فقد سأله أصحابه عن تربية الماشية: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟ قالَ: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ.[1]

أي: لا تؤجرون في رعاية الماشية فحسب، بل تؤجرون برعاية جميع الحيوانات والرفق بها، ما لم يكن حيوانًا مؤذيًا، وفي رعايته أذية للغير.

وتجده ينهى عن تعذيب الحيوانات أشدّ النّهي، فيقول: «دَخَلَتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها ، فلا هي أَطْعَمَتْها ، ولا هي تَرَكَتْها تأكلُ من خَشَاشِ الأرضِ»[2] أي: حبست هذه المرأة القطة، فلم تطعمها، ولم تسقها، ولم تتركها تخرج وتبحث عن رزقها خارج البيت.

---

[1] الحديث رواه البخاري في صحيحه (2234)، ومسلم في صحيحه (2244) عن أبي هريرة.

[2] الحديث رواه البخاري في صحيحه(3318)، ومسلم في صحيحه (2619) عن أبي هريرة.

وقد دافع النبي ﷺ عن الحيوانات وحقوقها، فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «كنَّا معَ رسولِ اللَّهِ في سفَرٍ فانطلقَ لحاجتِهِ فرأَينا حُمَّرةً معَها فرخانِ فأَخَذنا فرخَيها فجاءت تعرِشُ فجاءَ النَّبيُّ فقالَ: مَن فجعَ هذِهِ بولدِها ؟ ردُّوا ولدَها إليها.

ورأى قريةَ نملٍ قد حرَّقناها. فقالَ: مَن حرَّقَ هذِهِ ؟ قُلنا: نحنُ قالَ: إنَّهُ لا ينبَغي أن يعذِّبَ بالنَّارِ إلَّا ربُّ النَّارِ».[1]

وقد وجد جملًا أرهقه الحمل، وقلة الأكل، فقال لصاحبه: «إنَّ هذا الجمل شكا إليَّ أنك تُجيعُه وتُدْئِبُه».[2]

بل حتى في الحيوانات التي أجاز الشرع ذبحها وأكلها، أوصى بسرعة القيام بعملية الذبح حتى لا يكون في ذلك تعذيب لهذا الحيوان.

فقال: «فإذا قتلتُم فأحسِنوا القِتلةَ وإذا ذبحتُم فأحسِنوا الذِّبحةَ وليُحدَّ أحدُكم شفرتَهُ وليُرِح ذبيحتَه»[3].

والمقصود بـ«القتلة» هنا: قتل الحيوان المفترس الذي يعترض النَّاس في طريقهم، ولا سبيل للتخلص منه إلا بالقتل، فليكن إذًا قتله بالحسنى لا بتعذيبه بالحبس حتى الموت...

وأوصى النبي ﷺ بالبيئة والمحافظة عليها، فنهى عن قطع الأشجار حتى في الحروب، فكان يوصي أصحابه في الحروب ألا

---

[1] رواه أبو داود في سننه (2675).

[2] رواه أبو داود في سننه (2549)، وأبو يعلى في مسنده (6787) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (1955) عن شدّاد بن أَوْس.

يقطعوا شجرةً، ولا يقتلوا طفلًا، ولا امرأة، ولا شيخًا كبيرًا، ولا راهبًا في صومعته.

وأمر بالإكثار من زراعة الأشجار حتى في أصعب الظروف وأضيقها.

فقال: «إذا قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها» والفسيلة: هي الشجرة الصغيرة، ويشترك معها في الحكم الحبوب التي تنبت منها الأشجار.

ونهى عن تلويث الماء، والهواء، والطرقات، بالبول والغائط، وغيرهما من الأذى، فقال: «اتقوا اللاعنين» قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟! قال: الذي يتخلى -أي: يقضي حاجته- في طريق النّاس أو ظلهم».

وقال سيدنا جابر (رضي الله عنه): نهى رسول الله ﷺ أن يُبال في الماء الراكد، وأوصى بإحياء الأرض بالزراعة والسكنى، فقال: «من أحيا أرضًا مواتًا فهي له».

وأوصى بعدم إيذاء النَّاس بأي رائحةٍ كريهةٍ تنبعث من شخص واحد، فما بالك لو انبعثت من بيت، أو شارع، أو مدينة، فقال: «من أكل ثومًا، أو بصلًا، فلا يقربنّ مسجدنا».

وأوصى بعدم الإسراف في الموارد الطبيعية حتى ولو كانت كثيرة ومتوفرة حتى يتعود على ذلك، ويعيش حياته مقتصدًا، لا جشعًا، فنهى عن الإسراف في الماء، ولو كان الإنسان على نهرٍ جاري.

وأوصى كذلك أصحاب الصنعة بصنعتهم، فقال: «الصنعة أمان من الفقر»[1] وهي أيضًا إعمار للكون، وأوصاهم أيضًا أن يتقنوها، فقال: «إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[2]، وأوصاهم بالاحترافية فيها، والإبداع، وتجميلها بعد تكميلها، فقال: «إنَّ الله جميل يحب الجمال»[3].

وهكذا تجد النبي ﷺ قد بنى المدينة المثالية الفاضلة، والإمبراطورية العظيمة التي ملكت الدنيا بالعدل والرحمة في سنين معدودات.

يقول الأديب العالمي «ليف تولستوي 1828–1910م: «يكفي محمدًا فخرًا أنّه خلّص أمّةً ذليلةً دمويةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وأنّ شريعة محمد ستسود العالم؛ لانسجامها مع العقل والحكم».

وقال سانت هيلر: «كان محمد رئيسًا للدولة، وساهرًا على حياة الشعب وحريته، وكان يُعاقب الأشخاص الذين يجترحون

---

[1] مما جاء في معناه: ما رواه البخاري في صحيحه (1480)، وأحمد في مسنده (7490) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «والذي نَفْسي بِيَدِه، لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكم حَبْلَه، فيَذْهَبَ إلى الجَبَلِ، فيحْتَطِبَ، ثم يَأْتيَ به يَحمِلُه على ظَهْرِه، فيَبِيعَه، فيأْكُلَ؛ خَيرٌ له مِن أنْ يَسْأَلَ النَّاسَ».

وروى البخاري في صحيحه (1966) عَن الْمِقْدَامِ (رضي الله عنه)، عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ»

[2] رواه أبو يعلى في مسنده (4386) عن عائشة (رضي الله عنها).

[3] رواه أحمد في الزهد (285)، ومسلم في صحيحه (91) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

الجنايات حسب أحوال زمانه، وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبي بين ظهرانيها، فكان النبي داعيًا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفًا، ورحيمًا حتى مع أعدائه، وإنّ في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية، وهما العدالة والرحمة».

وصلِّ اللهمَّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(الخاتمة)

كان هذا أول ما كتبته عن الجناب الشريف، والمقام المنيف، حضرة النبي الكريم العظيم الفخيم سيدنا محمد بن عبد الله؛ صلوات الله وسلامه عليه.

وكان الكتاب عبارة عن خواطر خطرت لي عن عظمة، وروعة صفاته، وأفعاله، فكتبتها ونشرتها لعل الله يغفر لي ولوالديّ وأحبابي بها، ولعلّ الله يجعل لي مكانًا في قلب رسول الله ﷺ بسببها.

هذي ذنوبي في الورى كثُرت
وليس لي عمل في الحشر ينجيني
وقد أتيتك بالتوحيد يصحبـــه
حبّ النّبي وهـــــذا القدر يكفيني

وقد وفقني المولى الكريم لكتابة هذا الكتاب أثناء فترة خدمتي العسكرية بالقوات المسلحة المصرية الباسلة، وفي سيناء الحبيبة الغالية بالتحديد -حفظها الله من كل سوء- فجمع الله لي -ولله الحمد- بين جهاد السيف، والقلم.

فإن وجدتَّم من خيرٍ فمن الله المتفضِّل المنعم وحده لا شريك له، وإن وجدتم من خطأ، أو تقصير، فمن العبد الفقير، ومرده إلى ضيق الوقت، وانعدام المراجع.

وما عجلت إلى طبعه إلا خوف اختزام المنية، وهجوم الأجل، فأحببتُ أن أقدِّم لنفسي ولوالديّ شافعًا بين يدي الله تعالى، وإن أحياني الله تعالى فسأضيف إليه الكثير، وسأكتب عن سيد الخلق ﷺ الكثير والكثير إن شاء الله تعالى.

وأخيرًا:

يا من غدا ناظرًا فيما جمعتُ وقد
أضحى يردد في أفنائه النظرا
سألتك الله إن عاينت من خطأٍ
فاستر عليّ، فخير النّاس من سترا

وصلى الله وسلّم وشرّف وكرَّم وبارك على خير الخلق، وحبيب الحق سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه:

محمود ربيع حسن محمود

ليسانس الحديث وعلومه – أصول الدين القاهرة

يوم الأربعاء الموافق

29/ 10/ 1440 ه – 3/ 7/ 2002 م

فهرس الكتاب

المُقَدِّمَة 5

المَدْخَل 9

الباب الأول: (الشَّخْصِيَّةُ المُحَمَّدِيَّة) 15

الفصل الأول (أخلاقٌ لازِمةٌ وصفاتٌ ملازِمةٌ)..... 17

الفصل الثاني (الثَّبَاتُ الانْفِعَالِيّ) 28

الفصل الثالث (التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّر) 42

الفصل الرابع (سُرْعَةُ البَدِيهَة) 47

الفصل الخامس (السَّلَامُ النَّفْسِيُّ وَالخَارِجِيّ) 53

الفصل السادس (رَدُّ الشُّبُهَاتِ عَنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ) 59

الباب الثاني: (العَلَاقَاتُ الاجْتِمَاعِيَّة) 73

الفصل الأول (مِحْوَرُ العَلَاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا)..... 75

الفصل الثاني (العَلَاقَةُ مَعَ الأَبْنَاءِ وَالأَحْفَاد)..... 78

الفصل الثالث (العَلَاقَةُ مَعَ الزَّوْجَات) 86

الفصل الرابع (العَلَاقَةُ مَعَ أُولِي الأَرْحَام)..... 92

الفصل الخامس (العَلَاقَةُ مَعَ الأَصْدِقَاء) 96

الفصل السادس (العَلَاقَةُ مَعَ المُخَالِفِينَ فِي الرَّأْي) 101

الفصل السابع (العلاقة مع العدو)..... 108

الباب الثالث: (التَّعَامُلُ مَعَ المُسْتَجَدَّات)..... 111

الفصل الأول (مُوَاجَهَةُ التَّحَدِّيَاتِ وَالعَقَبَات) 115

الفصل الثاني (التَّعَامُلُ مَعَ المَشَاكِلِ الطَّارِئَة)..... 119

الفصل الثالث (الوَصَايَا) 130

(الخاتمة) 141

Book Review

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك/ هنا نصغي إليك!

تواصل معنا، ونحن نسمعك!

https://www.facebook.com/alhalapublishing

alhalapublishing@gmail.com